دكتور
العجمي دمنهوري خليفة
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بجامعة الأزهر بسوهاج

اللباب

في البر والصلة والآداب

الطبعة الرابعة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

موقع الطريقة الدومية الجلوتية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده ، نحمده وهو الحقيق بالحمد ، ونثني عليه وهو الجدير بالثناء ، ونسأله من فضله العظيم أن يمنحنا العلم النافع ، والعمل الصالح والإنابة إليه ، والإخلاص له ، والتوكل عليه كما نسأله أن يفتح علينا فتحه على الصالحين من عباده ، وأن يجعل ما نعلمه حجة لنا ، وفي ميزان حسناتنا ، وأن يهدي به قلوبنا ، ويزكي به نفوسنا ، ويصلح به سرائرنا ، وينور به بصائرنا ويسهل لنا به طريقاً إلى جنته ، مع الذين أنعم عليهم — سبحانه — من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

ونصلي ونسلم على من اصطفاه ربه واجتباه ، وأدبه وزكاه ، سيدنا وسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ، الذي أرسله ربه شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ختم الله به النبوات ، وتمم به الشرائع والرسالات وأكمل به الدين ، وأتم به النعمة ، وأرسى به دعائم الحق والخير ، والهدى والبر .

ورضي الله عن آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، الذين استنوا بسنته ، وتخلقوا بخلقه وسيرته ، واعتصموا بحبله ، فأثنى الله عليهم في كتابه ، ورفع أقدارهم في أوليائه وأحبابه ، وجعلهم هداة مهتدين ، ونسأل الله أن يلحقنا بهم في الصالحين ، غير مضيعين ولا مفتونين ، ندعو مع الداعين (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم) .

(أما بعد) فإن السنة ضوء الكتاب الكريم ، وهدى النبي الحكيم ،

أوصى الله سبحانه وتعالى بلزومها والحرص عليها ، وحذر من مخالفتها والإعراض عنها ، وبين أن ذلك نذير فتنة وعذاب أليم قال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (الحشر : ٧) .

وقال (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (النور : ٦٣) .

وقال (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما) (النساء : ٦٥) وقال ﷺ (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ) والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة .

وهذه طائفة من الأحاديث النبوية المباركة فى البر والصلة والآداب ، معظمها من صحيح البخارى ، وبعضها من صحيح مسلم وقد بسطت القول فى شرحها وإيضاحها والتعليق عليها ، وعنيت بتتبع أقوال أهل العلم ، ومناقشتها ، وترجيح ماوأيته راجحا منها ، وحرصت على تخريج الأحاديث التى أسوقها ، وعزو الآيات القرآنية إلى سورها وترقيمها ، وربطت بين الأحاديث والآيات القرآنية ، وبينها وبين الأحاديث الأخرى ، ذلك لأن الأحاديث النبوية والآيات القرآنية يوضح بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا ، فما أجمل فى موضع قد يأتى مفصلا فى موضع آخر ، وما قد يكون مشكلا فى مكان قد يرد واضحا فى مكان آخر ، وهكذا .

وأسأل الله أن يفتح به القلوب ، ويهذب به النفوس ، ويزكى به الأرواح ، وأن ينفع به كل من اطلع عليه ، ونظر فيه ، واعتنى به ، وأن يجعله خالصا لوجهه ، إنه سميع قريب .

أ.د. المعتصم دمنهورى خليفه الحويج

كتاب الأدب

الأدب هو الاستمساك بما يحمد شرعا وعرفا من الخصال ، واجتناب ما يذم ويستقبح من الأقوال والأفعال والأحوال .

قال الإمام العلامة جمال الدين ابن منظور فى « لسان العرب » : الأدب الذى يتأدب به الأديب من الناس ، سمى أدبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ، وأصل الأدب — بسكون الدال — من الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس مدعاة ومأدبة .

ثم قال : والأدب الظرف وحسن التناول ، وفى الحديث عن ابن مسعود (إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته) يعنى مدعاته ، قال أبو عبيد : وتأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه . انتهى بتصرف واختصار .

هذا وقد اختلفت عبارات أهل العلم فى بيان معنى الأدب ، قال أبو زيد : الأدب اسم يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، وقيل : هو استعمال ما يحمد قولا وفعلا ، وقيل : الوقوف مع المستحسنات ، وقيل : هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك .

وهذه العبارات يشير كل منها إلى جانب من جوانب الأدب مع إغفال ما عداه ، ولعل ما سقناه فى صدر هذا الكلام أشمل وأعم ، وأكمل وأتم ، ولله الحمد والمنة والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

١ – الترغيب فى بر الوالدين

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى رحمه الله ونفعنا به .

حدثنا أبو الوليد هشامُ بنُ عبدِ الملك (قال) حدثنا شُعْبَةُ قال : الوليدُ ابنُ عيزارٍ أخبرنى قال: سمعتُ أباعمرٍو الشيبانىَّ يقول : أخبرنا صاحبُ هذه الدار ، وأومأ بيده إلى دارِ عبد الله قال : سألتُ النبىَّ ﷺ : أىُّ العملِ أحبُّ إلى الله ؟ قال: الصلاةُ على وقتِها ، قال : ثم أىٌّ؟ قال : ثم برُّ الوالدين ، قال : ثم أىٌّ؟ قال : الجهادُ فى سبيلِ الله . قال : حدثنى بهنَّ ، ولو استزدتُه لزادنى .

أخرجه الشيخان ، وهذا لفظ البخارى فى كتاب الصلاة(١) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة – باب فضل الصلاة لوقتها ٢/١٤٨
وأخرجه فى الجهاد – باب فضل الجهاد والسير ٦/٣٤٣
وأخرجه فى الأدب – باب البر والصلة ١٣/٤
وأخرجه فى التوحيد – باب «وسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عملا» ١٧/٢٩٢
وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان – بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٢/٧٢

الشرح والبيان

قول شعبة رحمه الله (الوليد بن عيزار أخبرني) هو من تقديم الراوي على الصيغة ، وكان شعبة بن الحجاج — وهو أحد أئمة الحديث — يستعمله كثيرا .

وفي قوله (وأشار إلى دار عبد الله) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقد جاء مصرحا بذلك في روايات أخرى في الصحيح وغيره عني بذكر مواطنها وروايتها الحافظ ابن حجر في الفتح(١) . وفيه الاكتفاء بالإشارة المفهمة عن التصريح ، ونظيره قول الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة : كل أحد يؤخذ منه ويترك إلا صاحب هذا القبر ، يريد رسول الله ﷺ .

وعبد الله بن مسعود أحد أعلام الصحابة وعلمائهم وينتهي نسبه إلى هذيل ، أسلم قديما حين أسلم سعيد بن زيد قبل أن يسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بزمان وفي ذلك يقول ابن مسعود (لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

هاجر ابن مسعود إلى الحبشة الهجرتين ، ثم إلى المدينة ، وصلى إلى القبلتين وشهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ بدرا ، وأحدا ، والخندق ، وبيعة الرضوان وغيرها — كما شهد موقعة اليرموك بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي أجهز على أبي جهل في غزوة بدر ، وقد شهد له رسول الله بالجنة ، وكان كثير الدخول على رسول الله صلى الله عليه والخدمة له ، كما كان صاحب نعل رسول الله ﷺ : كان يلبسه إياها إذا قام ، فإذا خلعها

---

(١) انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري — كتاب الصلاة ٢/١٤٨

وجلس جعلها ابن مسعود فى ذراعه ، وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال (قدمت أنا وأخى من اليمن فكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومه له) .

كان ابن مسعود معدودا من كبار الصحابة وأعلامهم ، وفضلائهم وفقهائهم والمقدمين فى القرآن والحديث والفتوى ، وذلك لتقدم إسلامه ، وشدة ملازمته للنبى ﷺ ، وشغفه بالأخذ عنه ، وحسن مسألته ، حتى إن رسول الله ﷺ شهد له بالإمامة والتقدم فى القرآن ، وأوصى بالأخذ عنه ، والاغتراف من منهله فقد أخرج البخارى بسنده عن مسروق رحمه الله قال : ذكر عبد الله عنده عبد الله بن عمرو فقال : ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول : استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله ابن مسعود — فبدأ به — ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ ابن جبل قال : لا أدرى بدأ بأبى أو بمعاذ .

وهذا الحديث بهذا اللفظ أخرجه البخارى فى صحيحه فى باب مناقب سالم مولى أبى حذيفة وأخرجه مسلم بنحوه فى فضائل ابن مسعود ، وأخرجه البخارى بنحوه فى مناقب ابن مسعود وقد تحدث ابن مسعود بنعمة ربه عليه ، وبين مبلغ حفظه لكتاب الله ، ومعرفته به فقال فيما رواه مسلم فى فضائله (والذى لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت ، ولو أعلم أحدا هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه) .

وقد عرف كبار الصحابة لابن مسعود منزلته فى العلم ، ورسوخ قدمه فى الدين لهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى أهل الكوفة (بعثت إليكم عمارا أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى) وقد روى عنه الحديث كثيرون من الصحابة وغيرهم .

فمن الصحابة أبو موسى الأشعرى ، وعمران بن حصين ، وابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، وأنس ، وابن الزبير ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة وأبو رافع ، وغيرهم .

ومن التابعين علقمة ، والأسود ، وأبو وائل ، ومسروق ، وعبيدة وقيس ابن أبى حازم وغيرهم .

وقد بلغت مرويات ابن مسعود نحو اثنى ثمانمائة وثمانية وأربعين حديثا ، اتفق الشيخان منها على أربعة وستين ، وانفرد البخارى بواحد وعشرين حديثا ومسلم بخمسة وثلاثين حديثا .

ويعتبر هذا العدد المروى عن ابن مسعود قليلا بالنسبة لما كان ينتظر منه رضى الله عنه لتقدم إسلامه ، وملازمته لرسول الله ﷺ فى مدخله ومخرجه ، وسفره وحضره ، وشدة حرصه على الحديث ، وقوة حفظه ، وتفرغه لتحصيل العلم ، ولكنه لقى ربه فى سنة ٣٢ من الهجرة ، فلم تطل به الحياة بعد رسول الله ﷺ ، ولم يتسع له زمن الأداء كما اتسع لأبى هريرة وغيره فرضى الله عنه وأرضاه .

قوله (أى العمل أحب إلى الله) ، فى رواية مالك بن مغول (أى العمل أفضل) وكذا لأكثر الرواة كما أفاده الحافظ فى الفتح ، وكذا هو عند مسلم من رواية أبى عمرو الشيبانى صاحب روايتنا هذه ، وله فى لفظ آخر عند مسلم (أى الأعمال أقرب إلى الجنة) ؟ .

(الصلاة على وقتها) أى إقامة الصلاة فى وقتها لا خارجه . اختلفت الناس فى معنى (على) هنا ، فقيل: هى بمعنى اللام وقد ذكروا لهذه اللام ثلاثة معان : أن تكون للاستقبال ، مثل قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى مستقبلات عدتهن ، وقيل : أن تكون للابتداء كقولة تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقيل : هى بمعنى (فى) أى فى وقتها وقيل : (على) لإرادة الاستعلاء على الوقت ، وفائدته تحقق دخول الوقت ليقع الأداء فيه .

وقد اختلف أهل العلم فى هذه العبارة : هل تفيد أن المبادرة إلى الصلاة فى أول وقتها أفضل من التراخى أو هى تفيد مجرد إيقاع الصلاة فى وقتها ، ذهب إلى الأول ابن بطال رحمه الله ، وتازعه العلامة ابن دقيق العيد فقال : ليس فى هذا اللفظ ما يقتضى أولا ولا آخرا ، وكأن المقصود به الاحتراز عما إذا وقعت قضاء .

ولا شك أن المحافظة على الصلاة فى أول وقتها أكثر فائدة ، وأحمد عاقبة : ففيه المسارعة إلى العمل ، والمبادرة إلى إجابة داعى الله ، والصلاة مع الجماعة وفى وقتها المستحب والاحتياط لها قبل الصوارف والشواغل ، وإحراز فضيلة المشى إلى المسجد ، وفضيلة النافلة قبلها وبعدها ، وهى أمور قلما يدركها من فاتته الصلاة فى أول وقتها .

هذا وقد أفاد الحافظ فى الفتح أن أصحاب شعبة بن الحجاج اتفقوا على اللفظ وهو (على وقتها) وخالفهم على بن حفص ، وهو شيخ صدوق من رجال مسلم فقال (الصلاة فى أول وقتها) أخرجه الحاكم والدارقطنى والبيهقى من طريقه ، قال الدارقطنى : ما أحسبه حفظه لأنه كبر وتغير حفظه .

وهذه الرواية بهذا اللفظ لو صحت لكانت فيصلا فى المسألة ، ولكن أهل العلم أشاروا إلى ضعفها ، ومخالفتها ، بل صرح النووى فى شرح المهذب بأنها ضعيفة ، والأقرب أن من رواها كذلك ظن أن المعنى واحد أى أنها رواية بالمعنى الذى فهمه ، وقد يكون هذا المعنى مسلما له وقد يكون غير مسلم .

قال ابن حجر : ويمكن أن يكون أخذه من لفظة (على) لأنها تقتضى الاستعلاء على جميع الوقت فيتعين أوله .

(قال : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين) أى ثم أى الأعمال أفضل أو أحب إلى الله بعد الصلاة على وقتها - وبر الوالدين هو الإحسان إليهما ،

وفعل الجميل معهما ، وفعل ما يسرهما — وذلك بإكرامهما ، وتوقيرهما ، ورعاية حقوقهما ، والتواضع لهما ، وشكر نعمتهما : قال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا (الإسراء : ٢٣ ، ٢٤) . ويدخل فى البر بالوالدين الإحسان إلى صديقهما ، كما جاء فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر مرفوعا (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب) .

وبر الوالدين لا ينقطع بموتهما بل هناك أشياء من البر تبقى لهما بعد رحيلهما فعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينا نحن جالسون عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما) رواه أبو داوه .

(قال : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله)

الجهاد أصله لغة المشقة ، مأخوذ من الجهد — بفتح الجيم — وهو المشقة أو المبالغة فى المشقة أو الغاية فيها أو الجهد — بضم الجيم — وهو الوسع والطاقة .

ومعناه فى الشرع : استفراغ الوسع وبذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب.

وأما مجاهدة الفساق فباليد، ثم اللسان، ثم القلب.

وسبيل الله: هو الإسلام، وهو الهدى الذي دعا إليه، وقد غلب استعماله في قتل الكفار وجهادهم باليد والقلب واللسان.

قال ابن منظور: وسبيل الله عام يقع على كل عمل صالح خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض وأنواع التطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه (لسان العرب: ١٣/١٤٠).

والجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه لا يعدله عمل من الأعمال. فقد أخرج البخاري في كتاب الجهاد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: هل تستطيع إذا دخل المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك).

وقد قدم الصلاة على بر الوالدين، وقدم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، لأن الصلاة حق الله تبارك وتعالى، وهي لازمة للمكلف في كل أحيانه، وبر الوالدين لازم للمكلف طالما كان أبواه على قيد الحياة، وتبقى منه أشياء بعدموتهما، أما الجهاد في سبيل الله — بخاصة إذا كان بمعنى القتال — فإنه ليس بلازم على الدوام لزوم الصلاة وبر الوالدين، ثم إنه قد يتوقف على إذن الأبوين، وهذا إذا لم يكن متعينا، ذلك أن الجهاد في أصله فرض كفاية، وأحيانا يصير فرض عين.

قال الطبرى : إنما خص ﷺ هذه الثلاثة بالذكر لأنها عنوان على ماسواها من الطاعات ، فإن من ضيع الصلاة المفروضة حتى يخرج وقتها فى غير عذر مع خفة مؤنتها وعظيم فضلها فهو لما سواها أضيع ، ومن لم يبر والديه مع وفور حقهما عليه كان لغيرهما أقل برا ، ومن ترك جهاد الكفار مع شدة عداوتهم للدين كان بالجهاد غيرهم من الفساق أترك ؛ فظهر أن هذه الثلاثة تجتمع فى أن من حافظ عليها كان لما سواها أحفظ ، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع .

(قال : حدثنى بهن ، ولو استزدته لزادنى) وفى رواية مالك بن معول (فسكت عن رسول الله ﷺ) أى حدثنى بهذه الثلاثة حين سألته ، ولو أنى طلبت منه الزيادة لزادنى . وفى رواية أخرى .

(فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه) أى ماتركت سؤاله بعد ذلك وطلب المزيد منه ﷺ إلا إبقاء عليه ورفقا به .

وفى هذا الحديث وأمثاله مما اختلفت فيه أجوبة النبى ﷺ اشكال مشهور عند أهل العلم ببحثه ، قال ابن حجر : ومحصل ماأجاب به العلماء بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين ، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم .

أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل فى ذلك الوقت أفضل منه فى غيره ، فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال ، لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها . وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة ، ومع ذلك ففى وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل .

أو أن (أفضل) ليست على بابها ، بل المراد بها الفضل المطلق .

أو المراد من أفضل الأعمال ، فحذف (من) ، وهى مرادة .

وقال ابن دقيق العيد : الأعمال فى هذا الحديث محمولة على البدنية ، وأراد بذلك الاحتراز عن الإيمان لأنه من أعمال القلوب . وقال غيره : المراد بالجهاد هنا مالبس بفرض عين ، لأنه يتوقف على إذن الوالدين ، فيكون برهما مقدما عليه . انتهى بتصرف يسير .

هذا وقد بسط الإمام العالم العامل الورع المحقق محيى الدين يحيى بن شرف النووى القول فى المسألة فى شرحه على صحيح الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله فذكر أطرافا من هذه الأحاديث ، وأورد نصوصا ، وعزا الأقوال إلى أصحابها وعلق عليها وأضاف إليها فأجاد وأفاد .

قال رحمه الله : أما معانى الحديث وفقهها فقد يستشكل الجمع بينها مع ما جاء فى معناها من حيث إنه جعل فى حديث أبى هريرة أن الأفضل الإيمان بالله ثم الجهاد ثم الحج . وفى حديث أبى ذر الإيمان والجهاد ، وفى حديث ابن مسعود الصلاة ثم بر الوالدين ثم الجهاد . وتقدم فى حديث عبد الله ابن عمر : أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ، وفى حديث أبى موسى وعبد الله بن عمرو : أى : المسلمين خير ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . وصح فى حديث عثمان (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وأمثال هذا فى الصحيح كثيرة .

واختلف العلماء فى الجمع بينها فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمى الشافعى عن شيخه الإمام المتقن أبى بكر القفال الشاشى الكبير وهو غير القفال الصغير المروزى المذكور فى كتب متأخرى أصحابنا الخراسانيين قال الحليمى : وكان القفال أعلم من لقيته من علماء عصره أنه جمع بينها وجهين أحدهما أن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص ، فإنه قد يقال : خير الأشياء كذا ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه وفى جميع الأحوال والأشخاص ، بل فى حال دون حال أو نحو ذلك ، واستشهد فى ذلك بأخبار منها عن ابن عباس رضى الله عنهما

أن رسول الله ﷺ قال (حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة ، وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة) .

الثانى : أنه يجوز أن يكون المراد : من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها كذا . أو من خيركم من فعل كذا ، فحذفت (من) وهى مرادة ، كما يقال : فلان أعقل الناس وأفضلهم ، ويراد به من أعقلهم وأفضلهم ، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ (خيركم خيركم لأهله) ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقا ، ومن ذلك قولهم : أزهد الناس فى العالم أهله ، وقد يوجد فى غيرهم من هو أزهد منهم فيه. هذا كلام القفال رحمه الله . ثم عقب الإمام النووى فقال : وعلى هذا الوجه الثانى يكون الإيمان أفضلها مطلقا ، والباقيات متساوية فى كونها من أفضل الأعمال ، ثم يعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها ، وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . انتهى كلام النووى (صحيح مسلم ٢ / ٧٧ باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال) .

ما يؤخذ من الحديث :

قال الإمام النووى : وفى هذا الحديث الحث على المحافظة على الصلاة فى وقتها ، ويمكن أن يؤخذ منه استحبابها فى أول الوقت لكونه احتياطا لها ، ومبادرة إلى تحصيلها فى وقتها .

وفيه حسن المراجعة فى السؤال ، وفيه صبر المفتى والمعلم على من يفتيه أو يعلمه واحتمال كثرة مسائله وتقريراته .

وفيه رفق المتعلم بالمعلم ، ومراعاة مصالحه ، والشفقة عليه لقوله (فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه)

وفيه جواز استعمال (لو) لقوله : ولو استزدته لزادنى .

وفيه جواز إخبار الإنسان عما لم يقع أنه لو كان كذا لوقع لقوله (لو استزدته لزادني) انتهى :

وفي الحديث كذلك بيان فضل هذه الأمور التي ذكرها في الحديث ، وأن أعمال البر تتفاوت ويفضل بعضها على بعض ، وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من حسن الأدب ، وكمال التعظيم لرسول الله ﷺ وعظيم الشفقة عليه . وما كان عليه ابن مسعود رضي الله عنه من عظيم أدب ، وحسن سؤال ، وحرص على العلم ، وفيه أن الإشارة تنزل منزلة التصريح إذا كانت معينة المشار إليه ، بيزة له عن غيره .

وفيه غير ذلك ، والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

٢ — أحقُّ الناسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَة

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه قال : جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال : يا رسولَ الله مَنْ أحقُّ الناسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قال : أمُّك ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : أمُّك ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : أمُّك ، قال ثم مَنْ ؟ قال : أبوك .

أخرجه الشيخان ، وهذا اللفظ للبخاري(١) .

الشرح والبيان

أبو هريرة راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل ، الذي اشتهر بأنه أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله ﷺ .

وقد اشتهر بكنيته ، واختلف في اسمه على أقوال كثيرة ، من أشهرها أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .

أسلم وقدم على النبي ﷺ عام خيبر في شهر المحرم في سنة سبع من الهجرة . ولازم النبي ﷺ ملازمة تامة ، ولم يغب عنه في سفر ولا حضر ، وتفرغ لطلب العلم ولم يشتغل إبان حياة الرسول ﷺ بأهل ولا مال ، وقد مكنه ذلك أن يكون أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ ، وقد اتكل عليه بالكتاب والسنة عن كبار الصحابة والسابقين منهم .

وعاش بعد النبي ﷺ نحوا من خمسين سنة (٥٠) تفرغ فيها لتبليغ

---

(١) أخرجه البخاري في ، (الأدب) باب البر والصلة .
وأخرجه مسلم في كتاب (البر والصلة والآداب) من طرق .

هذا العلم وروايته ، ولهـــذا كان الناس فى عهده يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، وتلاميذه كثيرون ، قال الإمام البخارى : روى عن أبى هريرة نحو من ثمانمائة من أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، وكان ابن عمر يترحم عليه فى جنازته ويقول (كان يحفظ على المسلمين حديث النبى ﷺ) ومناقبه كثيرة .

روى عنه خمسة آلاف وثلثمائة وأربعة وسبعون حديثا (٥٣٧٤) اتفق الشيخان منها على ثلثمائة وخمسة وعشرين (٣٢٥) وانفرد البخارى منها بثلاثة وتسعين (٩٣) ومسلم بمائة وتسعة وثمانين (١٨٩) .

توفى أبو هريرة بعد حياة حافلة بالعلم والتعليم والتفقه فى الدين سنة سبع وخمسين من الهجرة على الراجح عن ثمانية وسبعين (٧٨) عاما فرضى الله عنه ولرضاه .

قوله (جاء رجـــل) قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أنه معاوية بن حيدة — وهو جد بهز بن حكيم — فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد من حديثه قال (قلت : يا رسول الله : من أبر ؟ قال : أمك . . . الحديث) وأخرجه أبو داود والترمذى . وقد أشار الشيخ بدر الدين العينى إلى كلام ابن حجر هذا وقال : جاءت أحاديث فى هذا الباب مما يشبه حديث الباب فلا يتعين فى الاحتمال معاوية بن حيدة — وذكر أحاديث شتى فيها نحو هذا السؤال . [انظر عمدة القارى ٢٢/٨٢]

وقد يسأل سائل : ما هى الأسباب التى تحمل الرواة من الصحابة وغيرهم على إغفال ذكر الأسماء فى بعض الأحاديث وترك أصحابها فى عداد المجهلة ؟

والذى ينظر فى كلام المحدثين يستطيع أن يتلمس لذلك الأسباب الآتية :

أولا : أن لا يتعلق بذكر اسم المبهم غرض شرعي .

ثانياً ، قد يشعر الحديث أو يصرح بنوع مذمة له فيترك قصدا الستر عليه .

ثالثاً : قد يبهم اسم الراوى إن كان امرأة ، لأن العرب كان من عادتهم أنهم يستنكفون من ذكر أسماء النساء صراحة فى كلامهم .

رابعاً : قد يكون الترك نسياناً من بعض الرواة .

تلك هي أهم الأسباب فى وقوع المبهمات فى متون الأحاديث ، ولكن المحدثين كانوا يبحثون عن هـــذه المبهمات لمعرفة أصحابها لأغراض شتى :

— فقد يتضمن الحديث منقبة ينبغى أن تضاف لصاحبها .

— وقد يتضمن مذمة له فى إضافتها إلى من صدرت منه ، وتسبب إليه سلامة القلوب من إساءة الظن بغيره .

— وقد يكون فى معرفة المبهم فوائد فقهية من معرفة الناسخ والمنسوخ ، والمتقدم والمتأخر . وهـذه أمور تدرك بالممارسة والخبرة ، وكثرة الاطلاع ، ومعرفة التواريخ .

والطريق إلى معرفة المبهمات. وتمييز أسماء أصحابها ورود المبهم مصرحا به فى رواية أخرى ، وقد يصل الباحث إلى تعيين المبهم وصولا يقينيا ، وقد يظل ذلك فى دائرة الاحتمال كما هو الحال فى الحديث الذى نحن الآن بصدد شرحه والبحث فيه .

وقد وضعت فى المبهمات مؤلفات من أشهرها كتاب الحافظ أبى زرعة العراقى أسماه (المستفاد من مبهمات المتن والإسناد) .

(فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي) ؟

الصحبة والصحابة مصدران بمعنى واحد وهو المصاحبة .

وحسن الصحبة : هو المصاحبة بالأدب العظيم ، والتوقير والتكريم ، وتقديم الخدمة مع وافر الحرمة ، من غير أذى ولا منة .

ويدل هذا السؤال على شعور الرجل بأن كثيراً من الناس لهم حق إحسان الصحبة ، وأن الرجل إنما يسأل عن أحقهم بذلك .

ومما يجدر التنبيه عليه ما جاء في رواية لمسلم في هذا الحديث (فقال : نعم وأبيك لتنبأن) فكيف جاء هـــذا عن المعصوم ﷺ مع نهيه عن الحلف بالآباء والحلف بغير الله ؟ وللعلماء على ذلك جوابان مشهوران :

— أولهما : أن كلمة (وأبيك) لا يقصد بها القسم ، وإنما هي كلمة تجري على اللسان لإرادة تثبيت الكلام .

— وثانيهما : احتمال أن يكون ذلك قد وقع قبل النهي عن الحلف بالآباء .

(قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال أبوك) هكذا بالرفع ، ووجهه ظاهر فإن كلمة (أمك) خبر لمبتدأ يقتضيه سياق الكلام والتقدير (أحق الناس بحسن صحابتك أمك) أو هو مبتدأ محذوف الخبر والتقدير (أمك أحق الناس بحسن صحابتك) وهكذا كلمة (أمك في الموضعين) وكلمة (أبوك) .

وقد وقع عند مسلم من هذا الوجه بالنصب في كلمة (أمك) وفي أخره (وأباك) ويخرج على إضمار فعل تقديره (برأمك .. برأباك) .

قال ابن بطال رحمه الله : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر .

وكأن ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشاركه الأب فى التربية ، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه : حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين — فسوى بينهما فى الوصاية . وخص الأم بالأمور الثلاثة .

وقال القرطبى : المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر ، وتقدم فى ذلك على الأب عند المزاحمة .

وقال عياض : وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل فى البر على الأب ، وقيل : برهما يكون سواء ، ونقله بعضهم عن مالك ، والصواب الأول .

قال ابن حجر : إلى الثانى ذهب بعض الشافعية ، لكن نقل الحارث المحاسبى الإجماع على تفضيل الأم فى البر ، وفيه نظر ، والمنقول عن مالك ليس صريحاً فى ذلك ، فقد ذكره ابن بطال قال : سئل مالك : طلبنى أبى فمنعتنى أمى ؟ قال : أطع أباك ، ولا تعص أمك . قال ابن بطال : هذا يدل على أنه يرى أن برهما سواء ، كذا قال ، والدلالة على ذلك ليست بواضحة ، قال : وسئل الليث — يعنى عن هذه المسألة بعينها — فقال : أطع أمك فإن لها ثلثى البر .

وهذا يشير إلى الطريق التى لم يتكرر ذكر الأم فيه إلا مرتين ، ووقع كذلك فى بعض الروايات التى أخرجها مسلم ، ووقع كذلك فى حديث المقدام ابن معد يكرب ، وقد أخرجه المصنف فى كتابه (الأدب المفرد) والإمام

أحمد فى المسند ، وابن ماجه فى السنن ، والحاكم فى المستدرك وصححه ، ولفظه (إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب) وفى رواية مسلم — وقد سبقت الإشارة إليها — (ثم أدناك أدناك)وفى حديث أخرجه الحاكم عن أبى رمثة(انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعته يقول :(.. أمك وأباك ، ثم أختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك) .

والمراد من الدنو القرب من البار ، وقد قال القاضى عياض : تردد بعض العلماء فى الجد والأخ ، والأكثر على تقديم الجد ، قال ابن حجر : وبه جزم الشافعية ، قالوا :يقدم الجد ، ثم الأخ ، ثم يقدم من أدلى بأبوين على من أدلى بواحد، ثم تقدم القرابة من ذوى الرحم ، ويقدم منهم المحارم على من ليس بمحرم ، ثم سائر العصبات ، ثم المصاهرة ، ثم الولاء ، ثم الجار .

وأشار ابن بطال إلى أن الترتيب حيث لا يمكن إيصال البر دفعة واحدة، وهو واضح ، وجاء ما يدل على تقديم الأم فى البر مطلقاً وهو ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى والحاكم وصححه من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت (سألت النبى ﷺ:أى الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال: زوجها، قلت : فعلى الرجل ؟ قال : أمه) ويؤيد تقديم حق الأم الحديث الذى أخرجه الحاكم وأبو داود من حديث عمرو بن شعيب ،عن أبيه ، عن جده (أن امرأة قالت : يارسول الله إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وثدى له سقاء ، وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى ، وأراد أن ينزعه منى ، فقال : أنت أحق به مالم تنكحى)فتوصلت لاختصاصها به باختصاصه بها فى الأمور الثلاثة .

ويؤخذ من الحديث أمور من أهمها :

ـ عظم حق الوالدين ، وتقديم حق الأم على الأب وتوكيده ، وإذا كان حقهما ثابتاً شكراً لنعمة كل منهما على الولد ، فإن حق الأم أوكد وأوثق ، لأن نعمتها على الولد أوسع ، وعطاءها أجزل .

ـ تأكد حقوق الأقارب بعد الوالدين على حسب درجاتهم قربهم ، فلكل من كان أقرب كان حظه من الحقوق أكبر وأوكد .

ـ أعظم الناس حقاً على الرجل أمه ، وأعظم الناس حقاً على المرأة زوجها ، والله أعلم وهو أجل وأحكم .

* * *

٣ — تحريم عقوق الوالدين

عن المغيرة بن شُعْبَة رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال « إنّ الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ، ومَنْعاً وهات ، ووَأْد البنات ، وكَرِهَ لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

متفق عليه(١) .

الشرح والبيان

المغيرة بن شعبة الصحابى المشهور ، أحد دهاة العرب المشهورين ، وكان يقال له : مغيرة الرأى .

قال الطبرى : كان لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجا ، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر له الرأى فى أحدهما ، ويروى له فى ذلك حكايات وطرائف تدل على حدة ذكائه ، وسرعة بديهته .

أسلم المغيرة قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان .

تولى كثيراً من الولايات ، وأرسل فى كثير من السفارات ، فقد ولاه عمر الكوفة . وأقره عثمان ثم عزله ، فلما قتل عثمان اعتزل القتال إلى أن

---

(١) أخرج البخارى فى كتاب الزكاة شطره الأخير من أول قوله : وكره لكم قيل وقال — باب قول الله عز وجل : لا يسألون الناس إلحافا — وكم الغنى ؟

وأخرجه فى (الاستقراض) باب ما ينهى عن إضاعة المال .

وأخرجه فى (الأدب) باب عقوق الوالدين من الكبائر .

وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

حضر مع الحكمين — ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع الناس عليه ، ثم ولاه بعد ذلك الكوفة فاستمر على إمرتها حتى لقى ربه سنة خمسين(٥٠) من الهجرة .

وكان مع أبي سفيان فى هدم طاغية ثقيف وبعثه أبو بكر إلى أهل النجير ، وأصيبت عينه يوم اليرموك ، ثم كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم القائد الفارسى . وكان رسول النعمان بن مقرن إلى امرىء القيس ، وشهد تلك الفتوح — وأخباره كثيرة ، فرضى الله عنه وأرضاه.

قوله (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات) العقوق مشتق من العق ، وهو القطع ، وهو حصول ما يتأذى به الوالدان أو أحدهما من الولد من قول أوفعل أومعصية أمر ، مالم يكن ما يأمران به شركا أو معصية فلا يعتبر تأذيهما بذلك ومخالفتهما عقوقا .

والأمهات جمع أمهة وهى لمن يعقل بخلاف لفظ الأم فإنه أشمل وأعم. والله سبحانه قد حرم عقوق الوالدين وعده الرسول ﷺ من أكبر الكبائر فى حديثه ، وإنما خص الأم بالذكر هنا لضعفها وتأكد حقها لما عانته فى حمله ، ووضعه ، ورضاعه وتربيته مما فصلته الآيات القرآنية ، وبينته الأحاديث النبوية .

قوله (ومنعا وهات) وفى بعض الروايات (ومنع) بغير تنوين . وأياما كان فهو مصدر والنون فيه ساكنة — وأما (هات) فقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه فعل أمر من الإيتاء وهو بكسر التاء ، والمشهور أنه اسم فعل أمر ، وأنه قد تلحقه ألف الاثنين ، وواو الجماعة وياء المؤنثة المخاطبة ، وقد يلزم حالة واحدة ، ولا يلحقه شىء من هذه الضمائر ، وفى التنزيل (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

والحاصل من النهى فى الأمرين منع ما أمر بإعطائه من حقوق كالزكاة المفروضة ونحوها ، وطلب الأشياء التى لاحق له فيها .

قوله (ووأد البنات) هو دفنهن أحياء .

وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك كراهية فى البنات ، وكانوا يستقبلون إنجاب البنات شر استقبال ، وتنتابهم المشاعر المتباينة عند تدبيرهم بين إبقائهن ووأدهن . يقول القرآن الكريم (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) (النحل : ٥٨ ، ٥٩) .

ويقال : إن أول من فعل ذلك قيس بن عاصم التميمى ، وكان بعض أعدائه أغار عليه فأسر ابنته فاتخذها لنفسه ، ثم حصل بينهم صلح فخير ابنته فاختارت زوجها فآلى قيس على نفسه ألا تولد له بنت إلا دفنها حية ، فتبعه العرب فى ذلك ، وكان من العرب فريق ثان يقتلون أولادهم مطلقا أى ذكورا كانوا أو إناثا ، إما لفقرهم وقلة ذات يدهم ، وإما لخشيتهم من الفقر وضيق العيش ، وفرق بين الأمرين ، فإن الفقر فى الأمر الأول حاصل وواقع ، وأما الثانى فالفقر فيـــه ليس حاصلا ، ولكنه يخشى حصوله ، ويتوقع نزوله .

وقد نهى الله عن قتل الأولاد مطلقا لأى سبب ، للفقر ، أو لخشية الفقر ، فقال عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) (الأنعام : ١٥١) .

وقال (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيرا) (الإسراء : ٣١) .

وكان صعصعة بن ناجية التميمى أيضا — وهو جد الفرزدق بن غالب ابن صعصعة أول من فدى الموءودة ، وذلك أنه كان يعمد إلى من يريد فعل ذلك فيفدى الولد منه بمال يتفقان عليه ، وإلى ذلك أشار الفرزدق بقوله :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وهذا محمول على الفريق الثانى الذين كانوا يقتلون أولادهم لفقر أو خشية فقر .

هذا وقد بقى كل من قيس وصعصعة إلى أن أدركا الإسلام ولهما صحبة لرسول الله ﷺ .

وإنما خص البنات بالذكر فى هذا الحديث لأنه كان الغالب من فعلهم ، ولأن الذكور مظنة الاكتساب والارتزاق ، ولا يخشى عليهم إذا ضربوا فى النواحى والآفاق .

وكان أهل الجاهلية فى صفة الوأد على ضربين :

أحدهما : أن الرجل منهم كان إذا قاربت امرأته الوضع أمرها أن تطلق بجانب حفيرة ، فإن وضعت ذكرا أبقته ، وإن وضعت أنثى طرحتها فى الحفيرة .

ومنهم من كان إذا صارت البنت سداسية — أى بنت ست سنوات — قال لأمها : طيبيها وزينيها لأزور بها أقاربها ، ثم يبعد بها فى الصحراء حتى يأتى بئرا من الآبار فيقول لها : انظرى فيها ، ويدفعها من خلفها ويطمها .

قوله (وكره لكم قيل وقال) أى كره لكم نقل الأقاويل والإشاعات التى يروجها الناس سواء كانت معلومة المصدر أو مجهولة ، أى نسبت لقائل بعينه ، أو لم تنسب لأحد .

وفى الحديث الصحيح (كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع) (رواه مسلم) والتقدير وكره لكم أن تقولوا : قيل كذا ، وقال فلان كذا ، وهكذا .

هذا وقد اختلف أهل العلم فى هاتين الكلمتين : هل هما اسمان أو فعلان ،

فذهب الجوهرى إلى أنهما اسمان بدليل دخول الألف واللام عليهما يقال: كثر القيل والقال .

وقال ابن دقيق العيد : لو كانت هاتان الكلمتان اسمين بمعنى واحد كالقول لم يكن لعطف أحدهما على الآخر معنى.

وقال صاحب المشكاة : قوله (قيل وقال) من قولهم قيل كذا وقال كذا وبناؤهما على كونهما فعلين محكيين متضمنين للضمير .

وإعرابهما على إجرائهما مجرى الأسماء خلوين من الضمير ، ومنه قوله (إنما الدنيا قيل وقال) وإدخال حرف التعريف عليهما فى قوله (ما يعرف القيل والقال) لذلك .

وفى هذه النصيحة حث للمسلم على التثبت فيما يقوله أو يحكيه ، وتحذير له من ترديد الأقاويل التى تدور بين الناس عن الناس .

وقد نعى الله على قوم نقلوا حديث الإفك وقالوا ما ليس لهم به علم ، وحذر سبحانه من ذلك أشد التحذير ، وأنكر على من أتاه أشد النكير ، ووعظ المسلمين ، وخوفهم أن يعودوا لمثله إن كانوا مؤمنين .

قال تعالى (إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) (النور : ١٥ ، ١٨) .

(وكثرة السؤال) اختلف أهل العلم فى المراد من السؤال فى هذا الحديث : فذهب بعضهم إلى أن المراد منه سؤال المال .

وذهب بعضهم إلى أنه السؤال عن المشكلات والمعضلات .

وذهب بعضهم إلى أنه شامل لكل ما يتأتى السؤال فيه .

وذهب بعضهم إلى أن المراد به كثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان ، أو كثرة سؤال إنسان عن تفاصيل حياته ، فإن ذلك مما يكرهه المسئول غالبا .

والأولى حمل الحديث على العموم بأن يكون شاملا لذلك كله .

وقد ثبت ذم السؤال للمال ، ومدح من لا يلحف فيه قال تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا) (سورة البقرة : ٢٧٣) .

وفي صحيح البخاري (لا تزال المسألة بالعبد حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم) وفي صحيح مسلم (إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : لذي فقر مدقع ، أو غرم مفظع ، أو جائحة) . وفي السنن قوله ﷺ لابن عباس (إذا سألت فاسأل الله) . وفي سنن أبي داود (إن كنت لا بد سائلا فاسأل الصالحين) .

وقد ثبت النهي عن الأغلوطات — أخرجه أبو داود من حديث معاوية والأغلوطات : جمع أغلوطة ، : قال في اللسان : والأغلوطة الكلام الذي يغلط فيه ويغالط به . . والمسائل التي يغالط بها العلماء . وإنما وقع النهي عنها لأنها غير نافعة في الدين ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع (٩ / ٢٣٨ لسان العرب) .

وثبت عن جمع من السلف كراهة تكلف المسائل التي يستحيل وقوعها عادة أو يندر جدا ، وذلك لما فيه من التنطع والقول بالظن ، وهو ما يؤدي إلى الزلل والخطإ .

وأما كثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان ، وكثرة سؤال إنسان عن تفاصيل حياته من كسب وإنفاق وادخار ، وسعادة وتعاسة فى حياته مع الناس، وفى عمله،وفى بيته ...إلخ ، فلا شك فى كراهية كل ذلك ، وقد قال ﷺ (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) (حديث حسن رواه الترمذى) إلى جانب أن كثره سؤال الناس عن تفاصيل حياتهم مما يكرهه الناس ، وينفرون منه ، ويصير بذلك مجلبة العداوة والبغضاء ، وربما حمل المسئول على الكذب ستراً لحاله ، وإزراء على نفسه وأهله وماله .

قوله (وإضاعة المال) إضاعة المال : هى إتلافه وإذهابه ، والتفريط فى حفظه وصيانته حتى يقل أو يهلك .

وقد حمله كثير من أهل العلم على الإسراف فى الإنفاق ، وقيده بعضهم بالإنفاق فى الحرام . قال ابن حجر : والأقوى أنه ماأنفق فى غير وجوهه المأذون فيها شرعا سواء كانت دينية أم دنيوية ، لأن الله تعالى جعل المال قواما لمصالح العباد، وفى تبذيرها تفويت تلك المصالح ، إما فى حق صاحب المال، وإما فى حق غيره،ثم قال:ويستثنى من ذلك كثرة إنفاقه فى وجوه البر لتحصيل ثواب الآخرة مالم يفوت حقا أخرويا ، فتحصل من ذلك فى كثرة الإنفاق ثلاثه أوجه :

الأول : إنفاقه فى الوجوه المذمومة شرعا، فهذا ممنوع لاشك فى منعه.

الثانى : إنفاقه فى الوجوه المحمودة شرعا . فهذا لاشك فى كونه مطلوبا مالم يفوت حقا أخرويا أهم منه .

الثالث : إنفاقه فى المباحات — فهذا ينقسم إلى قسمين :

فما كان منه على مقدار حال المنفق وبما يليق به عرفا فهذا ليس من باب الإسراف ولا إضاعة المال .

وما كان أكثر من حال المنفق فهو إسراف وإضاعة المال ، وتضييع للحق والآل .

وقد أوصى الله نبيه ﷺ بالتوسط فى الإنفاق ، وحذره من التقتير والتبذير ، وأشار إلى مايترتب على البخل والإسراف من الشر والملامة ، والهم والندامة ، فقال (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) . (الإسراء : ٢٩) .

وأثنى سبحانه على عباده الذين يسلكون فى إنفاقهم الطريق الوسط لايسرفون ولايقترون فقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (الفرقان : ٦٧) .

ومما يجدر التنبه له أن النهى من الأمور الثلاثة الأولى أشد وأوكد ، يدل على ذلك أن النهى عنها وقع بلفظ التحريم، بخلاف الثلاثة الأخيرة فإن النهى عنها وقع بلفظ الكراهية .

والحديث يهدف إلى إقامة مجتمع قوى متماسك ، يرعى فيه الأبناء حقوق الآباء، ويرحم الآباء فيه الأبناء، وفيه الوصية بالضعفاء والاستمساك بمكارم الأخلاق ونبذ سفسافها ، والله أعلم وهو أجل وأحكم .

٤ — الثلاثة الذين تكلموا فى المهد

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج .

وكان جريج رجلا عابداً ، فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتته أمه وهو يصلى ، فقالت : يا جريج فقال : يارب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج ، فقال : يارب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج فقال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسات .

فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم ، قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها ، فلما ولدت قالت : هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه . فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغى فولدت منك ، فقال : أين الصبى فجاءوا به ، فقال : دعونى حتى أصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا .

وبينا صبى يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها .

وَمَرُّوا بجاريةٍ وهم يضربونها ويقولون : زنيتِ ، سرقتِ وهي تقولُ: حسبي اللهُ ونعم الوكيلُ ، فقالت أمُّه:اللهم لاتجعل ابنى مثلَها ، فتركَ الرضاعَ ونظر إليها فقال: اللهم اجعلنى مثلَها ، فهناك تراجعا الحديث ، فقالت:حلْقِ مر رجلٌ حسنُ الهيئةِ فقلتُ : اللهم اجعل ابنى مثلَه فقلْتَ: اللهم لاتجعلنى مثلَه ومروا بهذه الأمةِ وهم يضربونها ويقولون : زَنَيْتِ ، سَرَقْتِ، فقلتُ : اللهم لاتجعل ابنى مثلَها فقلتَ: اللهم اجعلنى مثلَها،قال:إن ذلكَ الرَّجُلَ كان جَبَّارًا فقلتُ : اللهم لاتجعلنى مثلَه ، وإن هذه يقولون لها:زنيتِ ولم تَزْنِ ، وسرقتِ ولم تسرقْ ، فقلتُ : اللهم اجعلنى مِثْلَها .

رواه الشيخان ، وهذا اللفظ لمسلم(١) .

الشرح والبيان

(لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة) المهد:المراد به مهد الصبى،وهو موضعه الذى يهيأ له ويوطأ لينام فيه (لسان العرب ٦/٤١٩) .

وقد ورد فى بعض الأحاديث والآثار مايدل على أن الأطفال الذين تكلموا فى المهد كانوا أكثر من ثلاثة ، ولذا فقد تكلم أهل العلم عن توجيه الحصر الوارد فى هذا الحديث ، فقال الإمام القرطبى : فى هذا الحصر نظر إلا أن يحمل على أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة على ذلك ، وفيه

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب (أحاديث الأنبياء) باب قول الله تعالى واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ، وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب - وبوب عليه الإمام النووى بقوله - باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها .

بعد ، ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيدا بالمهد ، وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد .

أما الإمام النووى فقد عقب على هذا الحصر بقوله : وليس فيهم الصبى الذى كان مع المرأة فى حديث الساحر والراهب وقصة أصحاب الأخدود المذكور فى آخر صحيح مسلم — ثم قال : وجوابه أن ذلك الصبى لم يكن فى المهد ، بل كان أكبر من صاحب المهد وإن كان صغيرا .

(عيسى بن مريم) هذا أول للثلاثة الذين تكلموا فى المهد ، ولم يفصل النبى ﷺ القول فيه كما فصل فى الاثنين الآخرين . وذلك لأن الله سبحانه قد فصل قصة الحمل به وولادته فى القرآن الكريم فى سورة مريم أتم تفصيل ، ووضحه أكمل إيضاح ، قال تعالى (فأشارت إليه قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال : إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (مريم : الآيات ٢٩ — ٣٣) .

(وصاحب جريج) وهو الطفل الذى أنطقه الله لجريج ، وقد فصل النبى ﷺ قصته فقال (وكان جريج رجلا عابدا فاتخذ صومعة فكان فيها) الصومعة : هى البناء المرتفع المحدد أعلاه ، وزنها فوعلة من صمعت إذا دققت لأنها دقيقة الرأس ، ويدل ذلك على أن جريجا كان بعد عيسى عليه السلام ، وأنه كان من أتباعه ، لأنهم الذين ابتدعوا الترهب وحبس النفس فى الصوامع .

وقد ورد فى رواية عند الإمام أحمد ما يبين السبب الذى دفع جريجا لسلوك هذا المسلك ونصها (كان رجل فى بنى إسرائيل تاجرا ، وكان ينقص صرة ، ويزيد أخرى ، فقال : ما فى هذه التجارة خير ، لألتمسن تجارة هى خير من هذه ، فبنى صومعة وترهب فيها ، وكان يقال له جريج ... الحديث) .

(فأتته أمه وهو يصلى فقالت : ياجريج فقال : يارب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته فانصرف ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : ياجريج فقال : يارب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت: ياجريج فقال : أى رب أمى وصلاتى فأقبل على صلاته) .

تدل روايات هـــذا الحديث على أن أم جريج كانت تأتيه فتكلمه ويكلمها ، وأن صومعته كانت على رأس جبل ، وأنها لم تكن تستطيع الصعود إليه ، فكانت تكتفى بنظره إليها ونظرها إليه ، والكلام معه ، والاتئناس به ، ولكنها فى هذه المرات الثلاث صادفته وهو يصلى فتردد بين إجابتها وبين قطع صلاته أو تخفيفها — ثم آثر إتمام صلاته والاستمرار فيها ففى حديث عمران بن حصين (وكانت أمه تأتيه فتناديه فيشرف عليها فيكلمها فأتته يوما وهو فى صلاته) وفى رواية عند أحمد (فأتته أمه ذات يوم فنادته : أى جريج أشرف على أكلمك أنا أمك) .

وفى رواية (فصادفته يصلى فوضعت يدها على حاجبها فقالت : ياجريج فقال : يارب أمى وصلاتى . . . الحديث) ومعنى قوله (أمى وصلاتى) أى اجتمع على إجابة أمى وإتمام صلاتى فوفقنى لأفضلهما .

وهذا الكلام الذى قاله جريج فى الصلاة محمول على أنه قاله فى نفسه ، لا أنه نطق به ، ويحتمل أن يكون قد نطق به على ظاهره لأن الكلام كان مباحا عندهم ، وكذلك كان فى صدر الإسلام .

وقد جاء فى بعض روايات هـــذا الحديث مرفوعا إلى النبى ﷺ (لو كان جريج عالماً لعلم أن إجابة أمه أولى من إتمام صلاته) .

(فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات) وفى رواية (أبيت أن تطلع إلى وجهك ، لا أماتك الله حتى تنظر فى وجهك زوانى

المدينة) وهى مفسرة للرواية التى معنا ، ومبينة لمناسبة الدعوة التى دعتها على جريج أمه ، ذلك أنه لما حرمها أن تنظر إلى وجهه وأن ينظر إلى وجهها ، وهو أحب الوجوه إليه دعت عليه أن يرى أبغض الوجوه وشرها ، وهى وجوه الزوانى المجاهرات .

(فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته) الفاء حرف عطف يفيد العقبية ، فهى مؤذنة بأن دعوة أمه كانت سببا فى تذاكر بنى إسرائيل له ولعبادته ، ثم لما جرى له بعد ذلك — ولم توضح الروايات ما تذاكر به بنو إسرائيل من أمر جريج .

ولكن الذى يفهمه الحال أنهم اختلفوا فيه ما بين مادح وقادح ، وواصف له بالصدق والإخلاص ، وواصف له بالرياء والنفاق والمخادعة ، ولعل ارتضاءهم بعد هذا التذاكر لتعرض البغى له مما يكشف عن خبث نيتهم ، وسوء طويتهم .

(وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم) يتمثل بحسنها : أى يضرب به المثل لانفرادها به ، فالفتنة بها أشد ، وفى رواية (إن القوم ردوا عليها وقالوا : قد شئنا) ، وجاء فى بعض الروايات أنها بنت ملك القرية ، وفى بعضها أنها كانت راعية معزى ، وقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايتين بأنها خرجت من دار أبيها متنكرة ، وكانت تعمل الفساد إلى أن ادعت أنها تستطيع أن تفتن جريجا . فاحتالت بأن خرجت فى صورة راعية ليمكنها أن تأوى إلى ظل صومعته لتتوصل بذلك إلى فتنتـــه .

قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيا كان يأوى إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج) فى الكلام حذف تقديره : فلما ولدت سئلت : ممن هذا الولد ؟

قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه المرأة فولدت منك) .

وقد بينت الروايات الأخرى أن القوم أقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم يهدمون ديره وأنهم نادوه فلم يكلمهم ، وأنهم أخذوا يسبونه ويتهمونه بالرياء والمخادعة ، وتنادوا بقتله وصلبه . وأنهم جعلوا فى عنقه وعنقها حبلا وأخذوا يجرونه وجعلوا يطوفون بهما فى الناس وفى رواية (فلما مروا نحو بيت الزوانى خرجن ينظرن فتبسم ، فقالوا : لم يضحك حتى مر بالزوانى) .

(فقال : أين الصبى فجاءوا به ، فقال : دعونى حتى أصلى ، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه وقال : ياغلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ، ويتمسحون به ، وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا) .

فى رواية البخارى فى (كتاب الأنبياء) : (فتوضأ وصلى) .

وقد وردت روايات شتى توضح ما كان من جريج مع الصبى وما كان من أمر القوم معه ، وليس بينها — بحمد الله — اختلاف ، وبعضها يصرح بما أشار إليه البعض الآخر .

منها أن جريجا مسح برأس الصبى .

ومنها أن الله أبرأ جريجا وأن الناس أعظموا أمره .

ومنها أنهم عرضوا عليه أن يبنوا صومعته من ذهب فأبى ، فعرضوا أن تكون من فضة فأبى ، وأمرهم أن يعيدوها من طين كما كانت أى لا يزيدوا فيها ، ولا ينقصوا منها .

وفيها أنهم سألوه عما أضحكه حين مر نحو بيت الزواني فأجابهم بقوله (ما ضحكت إلا من دعوة دعتها على أمي).

وقد استنبط أهل العلم من حديث جريج وما حكاه النبي ﷺ عنه أمورا كثيرة من الأحكام والآداب وغيرها:

ففي الحديث عظم بر الوالدين وإجابة دعائهما.

وفيه إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرها واجب.

وفيه الرفق بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب، فإن أم جريج مع غضبها منه لم تدع عليه إلا بأن يريه الله وجوه المومسات، ولولا رفقها به لدعت عليه بما هو أشد كوقوع الفاحشة أو القتل.

وفيه أن صاحب الصدق مع ربه لا تضره الفتن، وأن من تعرف إلى الله في الرخاء فإن الله يتعرف إليه في الشدة، فيجعل له من الهم فرجا ومن الضيق مخرجا.

وفيه قوة يقين جريج وصحة رجائه في ربه، لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا ينطق، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه.

وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بدئ بأهمهما.

وفيه إثبات كرامات الأولياء، ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم وفيه أن المفزع في الأمور المهمة إلى الله يكون بالتوجه إليه في الصلاة، وفي الحديث «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة».

واستدل به بعض المالكية على أن من زنى بامرأة فولدت بنتا أنه لا يحل له التزوج بتلك البنت خلافا للشافعية — ذلك أن جريجا قال الغلام (من

أبوك ؟) وصدق الله تلك النسبة بما خرق من العادة بأن أنطق الغلام فقال : أبى فلان الراعى، فكانت تلك النسبة صحيحة،فيلزم أن تجرى بينهما أحكام الأبوة والبنوة ، خرج التوارث والولاء بدليل فبقى ماعداه على حكمه .

وفيه أن الوضوء لايختص بهذه الأمة خلافا لمن زعم ذلك، وإنما الذى يختص بها الغرة والتحجيل . والله أعلم .

(وبيناصبى يرضع من أمه فمر رجل على دابة فارهة ، وشارة حسنة، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا، وترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه فقال: اللهم لاتجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ، قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بإصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها ، قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت ،سرقت وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم لاتجعل ابنى مثلها،فترك الرضاع ونظر إليها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فهناك تراجعا الحديث فقالت : حلقى ، مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لاتجعلنى مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت ، سرقت. فقلت : اللهم لاتجعل ابنى مثلها ، فقلت : اللهم اجعلنى مثلها ، قال : إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت : اللهم لاتجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون ، زنيت ولم تزن ، وسرقت ولم تسرق ، فقلت اللهم اجعلنى مثلها) .

الدابة الفارهة :هى النشيطة الحادة القوية،والشارة: هى الهيئة واللباس. وهذا كله مؤذن بأن هذا الرجل غنى له وجاهة وتقدم .وقوله (يمصها) بفتح الميم على اللغة المشهورة ، وحكى ضمها .

وفى قوله (ومروا بجارية) إشعار بأنها كانت تجرد وقد صرحت بذلك بعض الروايات ، وفى ذلك من الهوان والفضيحة ما فيه ، فضلا عما رميت به من الزنا والسرقة ، وهما أسوأ تهمتين توجهان إلى فتاة وقوله

(فهناك تراجعا الحديث) أى كلمته وانتظرت جوابه، ولم تكن قبل ذلك تراه أهلا لذلك — (وقول المرأة (حلقى مر وجل الخ) هذا تفسير لقوله (تراجعا الحديث) ومعنى كلمة حلقى دعاء عليه بوجع الحلق، ولكن لايراد به حقيقة الدعاء وإنما يراد منه التعجب من حاله، ومن ظهوره بمظهر المعاند لأمه فيما قصدته من جلب الخير له، ودفع الأذى والشر عنه. ومعنى قوله (اللهم لاتجعلنى مثله) أى فى ظلمه وتجبره، كذلك فإن معنى قوله (اللهم اجعلنى مثلها) أى اجعلنى سالما من المعاصى كما هى سالمة، وليس المراد فى النسبة إلى باطل يكون منه بريئا.

وفى قصة هذا الصبى مع أمه ألوان من العلوم والمعارف:

— منها أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الظواهر، وتغفل عن الحقائق إلا من أورثه الله علما وإيمانا فإنه يزن الأمور بميزان الشريعة، وينظر إليها بنور ربه، لاتغره الظواهر، ولايغفل عن البواطن والخواتيم.

— ومنها أن الله قد يفتح على الصغير فيعلم مالا يعلم الكبير.

ومنها أن البشر مفطورون على حب أولادهم وإيثارهم بالخير، فقد تمنت هذه الأم لابنها من حصول الخير له ودفع الشر عنه مالم تذكره لنفسها.

وفى الحديث أن الله سبحانه يخرق العادات كيفما شاء، ولأى أمر شاء حسبما تقتضيه حكمته وإرادته، ولاينبغى للمؤمن أن يتوقف فى ذلك أو يتمارى فيه فإن الله إنما هو كما ذكر فى كتابه (إنما أمره إذا أراد شيئا أن أن يقول له: كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) (يس: ٨٢،٨٣).

٥ – التَّسَبُّبُ إلى لعنِ الوالِدَيْنِ من أَكْبرِ الْكبائِرِ

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رضى اللهُ عنهما أنه قالَ : قالَ رسولُ ﷺ « إنَّ مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يَلْعَنَ الرجلُ والديه ، قيل : يا رسولَ الله وكيف يلعنُ الرجلُ والديه ؟ قال : يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسبُّ أباه ويَسُبُّ أمَّه »(١) .

الشرح والبيان

عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى الصحابى المشهور .

أسلم قبل أبيه ، وكان مجتهداً فى العبادة ، مكثراً لتلاوة القرآن ، وكان أكثر الناس أخذا للحديث والعلم عن رسول الله ﷺ ، وكان يكتب كل ما يسمعه من النبى ﷺ فنهاه عن ذلك ناس ، وقالوا له : إن رسول الله ﷺ يتكلم فى الغضب والرضا فلا تكتب كل ما تسمع فسأل النبى ﷺ عن ذلك فقال : اكتب فوالله ما خرج منهما إلا حق — يعنى شفتيه الكريمتين —

روى عنه خلائق من الناس ، وانتفع الناس به ، وأقام بمصر زمنا وتوفى بها على أحد الأقوال سنة (٦٣) ثلاث وستين من الهجرة عن (٧٢) اثنين وسبعين عاما — فرضى الله عنه وأرضاه .

(إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) اللعن هو الطرد والإبعاد ، فإن كان من الله عز وجل وتقدس فهو الطرد والإبعاد من رحمته ، وإن كان من الخلق فهو الدعاء بذلك .

وقد عد النبى ﷺ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، والمذكور فى

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر ١٣/٧

هذا الحديث - وهو التسبب إلى لعن الوالدين - نوع من أنواع العقوق وفرد من أفراده .

(قيل : يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه) ؟ هو استبعاد من السائل لوقوع ذلك ، لأن الطباع السليمة تأبى ذلك ، وتنفر منه أشد النفور .

(قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه) فبين النبي ﷺ في جوابه أن الرجل وإن لم يتعاط السب بنفسه في الأعم الأغلب فإنه قد يقع منه التسبب فيه ، وهو أمر ممكن وواقع ، والسب : هو الشتم والتنقيص .

هذا وتفسير اللعن في الحديث بأنه التسبب إلى السب دليل على أن من تسبب إلى شتم والديه بأى لفظ كان لعناً أو غيره فهو مرتكب لهذا الوزر العظيم .

وقد استنبط أهل العلم من هذا الحديث طائفة من الأحكام والآداب .

قال ابن بطال : هذا الحديث أصل في سد الذرائع ، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم حرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصد إلى محرم .

ويندرج تحت ذلك أمور كثيرة لا تكاد تنحصر ، منها تحريم بيع الحرير لمن يتحقق أنه سيلبسه من الرجال ، وبيع السلاح لمن يتحقق أنه سيعتدى به على الناس أو يقطع به الطريق ، وبيع العنب أو العصير لمن يظن أنه سيتخذه خمرا ، وهكذا .

وقال الشيخ أبو محمد ابن أبي جمرة : فيه دليل على عظم حق الأبوين ، وفيه العمل بالغالب ، لأن الذى يسب أبا الرجل يجوز أن يسب الآخر أباه ، ويجوز أن لا يفعل ، لكن الغالب أن يجيبه بنحو قوله .

وفيه مراجعة الطالب لأستاذه فيما يقوله مما يشكل عليه .

وفيه إثبات الكبائر ، وإثبات التفاوت فيها ، وأن منها الكبير والأكبر

وفيه إشارة إلى انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر ، وهو مذهب جمهور أهل العلم وسيأتي البحث فيه .

قال العلماء : والأصل في هذا الحديث قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) (الأنعام : ١٠٦) قال ابن كثير عند تفسيرها : يقول الله تعالى ناهيا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو (الله لا إله إلا هو) كما قال علي بن طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم (فيسبوا الله عدوا بغير علم) (التفسير ٣/١٦٤) والله أعلم وهو أجل وأحكم .

ورعاية حقوق الوالدين ، والإحسان إليهما ، وجبر خاطرهما ، وصرف الأذى عنهما في حياتهما وبعد وفاتهما من الأمور التي أوجبها الدين ، وحث عليها سيد المرسلين ، واقتضاها الخلق الكريم ، فالوالدان سبب وجوده الولد ، وسبب بقائه ، ومصدر العز والنعمة له .

قال تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه : حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إلى المصير) (لقمان : ١٤)

— وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم : فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى ، فقال : هل من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل

كلاهما ، قال : فتبتغي الأجر من الله ؟ قال: نعم : قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ (لا يجزي ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه) رواه الشيخان .

— وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الوالد أوسط أبواب الجنة ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٦ – عقوق الوالدين من أكبر الكبائر

عن أبي بَكْرَة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ «ألا أُنبِّئكُمْ بأكبرِ الكبائرِ» ثلاثا؟ قلنا: بلى يارسولَ الله، قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وكان متكئاً فجلس وقال: ألا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّور. ألا وقولُ الزورِ وشَهادةُ الزُّورِ، فما زال يَقُولُها حتى قلتُ: لايَسْكُتُ».

الشرح والبيان

راوى هذا الحديث هو الصحابي الجليل: أبو بكرة واسمه نفيع ابن الحارث، ويقال: ابن مسروح.

مشهور بكنيته، كان من فضلاء الصحابة، وسكن البصرة، وأنجب أولاداً لهم شهرة، وكان قد تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بأبي بكرة.

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وروى عنه أولاده، رضي الله عنه وأرضاه.

قوله (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا) أي أنه عليه الصلاة والسلام قال هذه العبارة ثلاث مرات، جريا على عادته في تكرير الشيء ثلاث مرات تأكيدا ليلبه السامع على إحضار قلبه وفهمه الخبر الذي سيذكره.

وتشير هذه العبارة النبوية الكريمة إلى تفاوت الكبائر، وأن منها ماهو أكبر، ومنها ماهو كبير، وإلى أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر. وهذا رأي جمهور أهل العلم من السلف وغيرهم، وقد تظاهرت على هذا

المذهب أدلة الكتاب والسنة كما قال الإمام النووى رحمه الله تعالى .

فمن القرآن قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً) (النساء : ٣١) وقوله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم (النجم : ٣٢) .

ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام (الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات مابينهن ما اجتنبت الكبائر) رواه مسلم) .

فهذا الحديث يدل على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر ، وعلى أن الصغائر تكفرها هذه الأعمال الصالحة المذكورة إذا ما اجتنبت الكبائر وآية النساء جعلت فى المنهيات صغائر وكبائر ، وفرقت بينهما فى الحكم إذ جعلت تكفير السيئات مشروطا باجتناب الكبائر . وأما آية سورة النجم فقد استثنت اللمم من الكبائر والفواحش ، فدل ذلك على التفرقة بينهما.

وقد نص الشارع الحكيم على أمور أنها من الكبائر أو الموبقات وحذر منها أشد التحذير ، وشدد على من ارتكبها النكير ، ووصف بعضها بأنه من أكبر الكبائر .

وقد اختلف أهل العلم فى تعريف الكبيرة وضبطها اختلافا كثيرا فروى عن ابن عباس أنها : كل ذنب ختمه الله بنار أوغضب أولعنة أوعذاب .

— وقال إمام الحرمين : هى كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة .

— وقال عز الدين بن عبد السلام : الأولى ضبطها بما يشعر بتهاون مرتكبها بدينه إشعاراً دون الكبائر المنصوص عليها .

— وقال القرطبي : الراجح أن كل ذنب نص الشارع على كبره ؛

أوعظمه، أوتوعد عليه بالعقاب، أوعلق عليه حداً وشدد النكير عليه، فهو كبيرة .

وبالتأمل فى تعريف الكبيرة نستطيع أن ندرك أنها نوعان: نوع اقترن به فى نصوص القرآن والسنة مايدل على أنه كبيرة - ونوع آخر يعرف بأنه كبيرة بالنظر فى مفسدته ومقارنته بالمنصوص عليه ؛ وهو مما يمكن اندراجه تحت قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) (النساء : ١٤) .

وذلك كخيانة المسلمين بدلالة العدو على أسرارهم وعوراتهم فإنه أشد من الفرار يوم الزحف ، والحكم العمد بغير الحق اتباعا لهوى النفس ، أو خضوعا لطغيان السلطان ، أو رضوخا لرشوة فإنه أشدمن شهادة الزور وهكذا .

وقد قال الواحدى : مالم ينص الشارع على كونه كبيرة فالحكمة فى إخفائه أن يمتنع العبد من الوقوع فيه خشية أن يكون كبيرة كإخفاء ليلة القدر وساعة الجمعة والاسم الأعظم والله أعلم .

— قوله ﷺ (أكبر الكبائر) ليس على ظاهره ، وإنما فيه (من) مقدرة والتقدير ألا أنبئكم بأمور هى من أكبر الكبائر (لكن أسلوب الحديث الذى يتغاضى عن ذكر كلمة (من) أبلغ فى الزجر) وذلك لأنه قد ثبت فى أمور أخرى نهى الشارع عنها أنها من أكبر الكبائر منها حديث (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) وهذا فى الحقيقة راجع إلى عقوق الوالدين ، ومنها حديث أنس فى البخارى وغيره (الكبائر الشرك بالله ، وقتل النفس) ومنها حديث ابن مسعود (أى الذنب أعظم .. وفيه الزنا بحليلة الجار) ومنها حديث عبدالله بن أنيس الجهنى - وفيه .. اليمين الغموس .

وحديث لأبي هريرة (إن من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم) والاستطالة في عرض المسلم هي استحقاره والترفع عليه ، والوقيعة فيه .

وحديث لعائشة (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) .

— (قلنا : بلى يا رسول الله) أي قلنا : دلنا يا رسول الله، وبلى حرف جواب مثل نعم ، إلا أن (بلى) لإثبات ما بعد النفي ، بخلاف نعم فإنها لتقرير ما قبلها نفيا أو إثباتا .

— (قال : الإشراك بالله) هو أن يكون العبد مصدقا بوجود الله ، مؤمنا به إلا أنه يعبد معه آلهة أخرى يزعم أنها تقربه إلى الله ، وتشفع له عنده ، وذلك كما هو الحال في مشركي العرب فقد كانوا يؤمنون بالله ، ولكنهم كانوا يتخذون لهم أصناما وأوثانا يعبدونها من دون الله ويسمونها آلهة ، ويقدمون لها القرابين .

قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (يوسف : ١٠٦) وقال (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) (الزمر : ٣) .

وقال (ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ليقولن: الله ، قل : أفرأيتم ما تعبدون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) (الزمر : ٣٨) .

وقد جاء الإسلام فدعا إلى إخلاص العبادة لله وحده ، ونبذ الأصنام والأوثان وبين أنها لا تملك نفعاً ولا ضراً لانفسها ولا لعابديها ، وأنها

لا تسمع دعاء من يدعوها ، ولو سمعت ما استجابت ، قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشركم . ولا ينبئك مثل خبير) (فاطر : ١٣ ، ١٤) .

وإذا كان الإشراك بالله أقبح الفعال ، وأشنع الخصال فإن الكفر الصريح ، وجحد الخلاق الرزاق ، الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى وأخرج المرعى أشد قبحا وأعظم جرما .

وإذن فكلمة (الإشراك بالله) تدل بالطريق الأولى على أن الكفر لا يقاس به ذنب ، ولا تقارن به معصية ، لأنه إذا كان ما ذكره الحديث هو حال المشرك — ومعه نوع إيمان — فكيف بمن أنكر وجحد ، وأعرض واستكبر .

(وعقوق الوالدين) العقوق : مشتق من العق وهو القطع والمراد منه : صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل . لكن إذا أمره بشرك أو معصية فعصى فكان تأذيهما بذلك فهذا لا يعد عقوقا لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولقوله تعالى (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) (لقمان : ١٥) .

فإن أمر أحد الوالدين الولد ذكرا كان أو أنثى بقتل نفس ، أو شرب خمر ، أو سرقة أو زنا ، أو إتلاف مال ، أو تقصير فى طاعة ، فلا طاعة لهما عليه فى شىء ، فإن حصل لهما بذلك تأذ وضيق فلا يبأ الله به .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال : أنزلت فى هذه الآية

(وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية قال : كنت رجلا بارا بأمي فلما أسلمت قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ، لتدعن دينك أولا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فتعير بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي ، فأكلت (الطبراني في كتاب العشرة تفسير ابن كثير ٣/٤٤٥) .

قوله (وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلت : لا يسكت) في إحدى الروايات (ألا وقول الزور أو شهادة الزور) بأو التي للشك — وفي أخرى (فما زال يكررها حتى قلت : ليته سكت) .

اهتم النبي ﷺ بالتحذير من شهادة الزور ، وظهر اهتمامه في فعله وقوله — أما فعله فقد كان متكئا فجلس ، وأما قوله فبهذا التكرير الكثير حتى ظن معه أبو بكرة رضي الله عنه أنه لا يسكت كما تفيده الرواية التي معنا ، أو تمنى لو أنه سكت إشفاقا عليه كما تدل عليه الرواية الثانية .

وضابط الزور هو : وصف الشيء على خلاف ما هو عليه .

ويضاف إلى القول ، والشهادة — وهي نوع من القول — ويضاف إلى الفعل ، فإن أضيف إلى القول فإنه يشمل الكذب والباطل ، وإن

أضيف إلى الشهادة كان خاصا بها ، وإن أضيف إلى الفعل فالمراد به التلبيس والتدليس على الناس ، كمن يظهر بمظهر الأبرار وهو من الفجار — ومن ذلك من يلبس ملابس طائفة بعينها ، أو يضع على سيارته شارة طائفة خاصة موهما أنه من هذه الطائفة أو من أهل هذه المهنة — إلى غير ذلك — وأمثلته لا تحصى .

واهتمام النبي ﷺ بقول الزور وشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعا على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعا — لأن الإشراك بالله مما يستقبحه المؤمن شرعا ، وعقوق الوالدين مما يستقبحه أصحاب الفطر السليمة طبعاً — أما قول الزور وشهادة الزور فربما خف شأنها على بعض من لم يفكر فى ما يترتب عليها من فساد ، وما تجره من شرور وكوارث .

وأما عطف الشهادة على القول بالواو فيحتمل أن يكون للتأكيد ، ويحتمل أن يكون من باب ذكر الخاص بعد العام فإن الشهادة نوع خاص من أنواع القول .

وأما العطف بأو فإنه يجعل الحكم لشيء واحد هو الشهادة أو القول ، إلا أن الراوى شك فيه .

أما تعريف شهادة الزور فقد قال القرطبى : شهادة الزور هى الشهادة بالكذب ليتوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس ، أو أخذ مال ، أو تحليل حرام ، أو تحريم حلال .

— وفى هذا الحديث وأمثاله استحباب إعادة الموعظة ثلاثا لتفهم .

— وانزعاج الواعظ فى وعظه ليكون أبلغ فى الوعى عنه ، والزجر عما ينهى عنه .

— وفيه غلظ أمر شهادة الزور لما يترتب عليها من المفاسد من سفك الدماء ، وتضييع الحقوق ، وتبرئة المجرم ، وإدانة البريء .

وفيه التحريض على مجانبة الكبائر ليحصل تكفير الصغائر .

وفيه إشفاق التلميذ على شيخه إذا رآه منزعجا ، وتمنى عدم غضبه لما يترتب على الغضب من تغير مزاجه .

وفيه غير ذلك ، والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

٧- بر الوالدين بعد موتهما

٥ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضى الله عنه أنه قال: بينا نحن جالسون عندَ رسولِ اللهِ ﷺ إذ جاءه رجلٌ من بنى سَلِمَةَ فقال يارسولَ الله هل بقى مِنْ برِّ أبوَىَّ شىءٌ أبرُّهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم ، الصلاةُ عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عهدِهما مِنْ بعدِهما ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ التى لا توصلُ إلا بهما ، وإكرامُ صَدِيقِهما ، رواه أبو داود .

الشرح والبيان

مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى ، أبو أسيد ، مشهور بكنيته ، وهى بصيغة التصغير ، الصحابى الجليل .

شهد بدراً وأحداً وما بعدها ، وكان معه راية بنى ساعدة يوم فتح مكة ، روى عن النبى ﷺ أحاديث . وروى عنه أولاده وموالیه من التابعين ، وروى عنه من الصحابة أنس وسهل بن سعد الساعدى .

توفى سنة ستين من الهجرة عن ثمان وسبعين أو خمس وسبعين أو ثمانين سنة وهو آخر البدريين موتا ، وفى وفاته أقوال أخرى ، والراجح ماذكرناه ، والله أعلم .

قوله ﷺ (الصلاة عليهما) أى الدعاء لهما ، قال تعالى : يخاطب رسوله ﷺ (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) (التوبة : ١٠٣) ويدخل فى ذلك صلاة الجنازة

وقوله (والاستغفار لهما) أى طلب المغفرة لهما من الله سبحانه ، وهو من ذكر الخاص بعد العام لأهميته ، وتوجيه القلوب إليه ، لأن الاستغفار لون من ألوان الدعاء .

وقوله : (وإنفاذ عهدهما من بعدهما) العهد هنا معناه الوصية ، والمعنى إمضاء وصية الوالدين وتنفيذها من بعد موتهما ، وسواء كانت مكتوبة أم غير مكتوبة ، فمن البر بالوالدين تنفيذ ما أوصى به كل منهما مهما كلف ذلك من ثمن، لأن رعاية حقوق الوالدين،وجبر خواطرهما متأكدة بعد وفاتهما مثل تأكدها فى حياتهما ، بل هى بعد الوفاة أوكد ، لأن حالة الحياة إذا حصل فيها تقصير من الولد لوالديه فقد يمكن تلافى ذلك والاعتذار عنه ، وذلك متعذر بعد وفاتهما .

(وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما) الرحم هم الأقارب الذين يجمعهم نسب واحد سواء كانوا محارم أم لا ، بينهم توارث أم لا .

وصلة الرحم : هى البر بهم ، والإحسان إليهم ، والسؤال عنهم ، وتفقد أحوالهم ، وعيادة مريضهم ، والسعى فى مصالحهم،والنصيحة لهم ، وإيصال ما يمكن إيصاله من الخير لهم ، ودفع ما يمكن دفعه من الشر والأذى عنهم .

وهذا الحديث يدل على أن صلة الرحم من البر بالوالدين . وهذا حق واضح .

فما وجب حق الإخوة والأخوات إلا لأنهم أولاد أمك وأبيك ،

وما وجب حق الجد والجدة إلا لأنهم آباء وأمهات لآبائنا وأمهاتنا ،

وما وجب حق الأخوال والخالات إلا بسبب أختهم للأم .

وما وجب حق الأعمام والعمات إلا بسبب أختهم للأب ، وهكذا .

(وإكرام صديقهما) الصديق هو الحبيب ، وإكرامه مواصلته بالود والإحسان ، والزيارة والسؤال .

وقد حث عليه النبى ﷺ وعده أبر البر أو من أبر البر ، فعن ابن عمر

رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال (إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه) (وعن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كان يشد بها رأسه ، فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب ، وإنهم يرضون بالشيء اليسير ، فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أبر البر صلة الرجل ود أبيه) وفي رواية أخرى لهذا الحديث (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى ، وإن أباه كان صديقاً لعمر رضى الله عنه) وهـــذا الحديث برواياته كلها ذكره مسلم في صحيحه في بر الوالدين (صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/١٠٩) .

وفي الحديث تعظيم حق الوالدين ، وأن برهما لا ينقطع بالموت ، وأن الإسلام دين التراحم والتواصل والوفاء ، وحسن العهد ، ورعاية الحرمات ، وأن الشيء الواحد قد يطلب بأكثر من سبب ، فصلة الرحم مطلوبة لأنها حقهم ولأنها لون من البر بالوالدين ،

ويؤخذ منه ما كان عليه أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام من السؤال عما من شأنه أن يخفى عليهم من أمر دينهم ، وفضيلة ذلك الرجل السائل من بنى سلمة لحسن سؤاله ، والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

٨ — فَضْلُ صِلَةِ الرَّحِم

عن أبي هريرةَ رضى اللهُ عنه أنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : « مَنْ سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ لَهُ فى رِزْقِهِ ، وَأنْ يُنْسَأَ له فى أثَرِهِ فلْيَصِلْ رَحِمَه » متفق عليه .

أخرجه البخارى من هذا الوجه فى كتاب الأدب — باب من بسط له فى الرزق لصلة الرحم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ١٨/١٣

وأخرجه فيه ، وفى كتاب البيوع — باب من أحب البسط فى الرزق من حديث أنس رضى الله عنه ٢٠٥/٥

وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب — باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها من حديث أنس رضى الله عنه ١١٤/١٦

الشرح والبيان

تضمن هذا الحديث ترغيباً شديداً فى صلة الرحم ، ببيان بعض ما يترتب على ذلك من ثمرات ، وما ينطوى عليه رعاية حقها من خيرات وبركات ، وقد كثرت فى ذلك الأحاديث :

فقد روى الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « أن صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال ، منساة فى الأثر » وقال : حديث حسن .

وعند أحمد بسند رواته ثقات عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا « صلة الرحم ، وحسن الجوار ، وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار »

والرحم : هم الأقارب ، وهم الذين يجمعهم نسب واحد ، سواء كان بينهم توارث أم لا ، وسواء كان بينهم محرمية أم لا ، فيدخل فيهم الإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، وأولاد العم وبنات العم ، والأجداد والجدات ، وهكذا .

— وقيل: الرحم التى تجب صلتها هم المحارم فقط، فيخرج أولاد وبنات العم ، وأولاد وبنات الأخوال ، ومن على شاكلتهم ، والقول الأول هو الراجح .

وتتأكد حقوق ذوى الرحم بتأكد القرابة والدنو من الإنسان ، فحق الإخوة والأخوات مقدم على أبناء وبنات العم ، وأعمام الرجل مقدمون على أعمام أبيه . وهكذا . ويشهد لذلك حديث أبى هريرة رضى الله عنه « من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ وفى آخره — أختك وأخاك ثم أدناك أدناك » وهو حديث صحيح ، وهو واضح الدلالة على تقدم حق الأدنى من الأقارب بحيث إنه إلى الوالدين ، ثم من من يليه على درجاتهم .

وصلة الرحم نوع من البر بالوالدين ، وذلك لأن الأقارب إنما يتصلون بالمرء عن طريق والديه

فما وجب حق الإخوة والأخوات إلا لأنهم أولاد أمك وأبيك .

ولا وجب حق الخال والخالة إلا لأختهما للأم .

ولا وجب حق الأعمام والعمات إلا لأختهما للأب .

ولا وجب حق الأجداد والجدات إلا لأنهم أصولنا ونحن فروعهم ، وما نشأت بيننا وبينهم هذه الصلات إلا من طريق الآباء والأمهات .

فقد أخرج أبو داود فى سننه عن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه أنه قال « بينا نحن عند رسول ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله هل بقى من برأبوى شىء أبرهما به بعد موتهما فقال : نعم ،

الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

وصلة الرحم : هي البرهم ، والإقساط إليهم ، وتعهدهم بالزيارة لهم ، والسؤال عنهم ، وقضاء حاجاتهم ، ومشاركتهم في ما يغوبهم من أفراح وأتراح .

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في بيان معنى هذه الصلة .

— قال القرطبي : الرحم التي توصل عامة وخاصة ، فالعامة رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح ، والعدل والإنصاف ، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة .

وأما الرحم الخاصة فتزيد النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم ، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك كما في الحديث الأول من كتاب الأدب (الأقرب فالأقرب) .

— وقال ابن أبي جمرة : تكون صلة الرحم بالمال ، وبالمعونة على الحاجة ، وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه وبالدعاء — والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة ، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفارا أو فجارا فقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى .

— قال القاضي عياض رحمه الله : لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة ، والأحاديث تشهد بذلك ، قال ﷺ : « إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب قال : فهو لك . قال رسول الله ﷺ : فاقرأوا إن شئتم :

(فهل عسيتم — إن توليتم — أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) متفق عليه ، وفى الحديث القدسى « عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته . ومن قطعها بتته) أخرجه الترمذى وأبو داود .

قوله ﷺ (من سره ، وفى رواية أنس (من أحب) السرور والمحبة متلازمان ، فمن أحب شيئا سره تحصيله والظفر به .

وقوله (ينسأ) من الإنساء ، وهو مبنى لما لم يسم فاعله — بضم أوله وسكون النون بعدها سين ثم همزة ، أى يؤخر .

وأما (الأثر) فله معان كثيرة : منها الأجل ، وسمى به لأنه يتبع العمر ، قال زهير :

والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهى العمر حتى ينقضى الأثر

وأصله من أثر مشيه فى الأرض ، فإن من مات لا يبقى له أثر ، ولا يرى لأقدامه فى الأرض أثر ، ومن معانيه الخبر وجمعه آثار وقوله عز وجل (ونكتب ما قدموا وآثارهم) أى من سن سنة حسنة يكتب له ثوابها ، ومن سن سنة سيئة كتب عليه عقابها ، والأثر : ما بقى من رسم الشىء .

« والإنساء فى الأثر » هو التأخير فى العمر وهو معارض بظاهره لقوله تعالى « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ونحوها من الآيات والأحاديث التى تدل على أن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

وقد جمع أهل العلم بين هذا الحديث وبين هذه الآيات بوجوه من الجمع :

— منها : أن هذه الزيادة كناية عن البركة فى العمر بسبب توفيق الله

لمن يصل رحمه إلى طاعة ربه وعبادته والإقبال عليه ، وعمارة وقته بما ينفعه فى الآخرة ، وصيانته عن تضييعه فى غير ذلك .

ومثل هذا ما جاء أن النبى ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر .

وحاصل هذا الوجه أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة ، والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يمت .

— ومنها : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك فى الحديث بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالأعمار ، وأما ما دلت عليه الآيات فبالنسبة إلى علم الله تعالى . كأن يقال للملك مثلا : إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه ، وستون إن قطعها ، وقد سبق فى علم الله أنه يصل أو يقطع ، فالذى فى علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ، والذى هو فى علم الملك يمكن فيه الزيادة والنقص ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فالمحو والإثبات بالنسبة لما فى علم الملك ، وما فى أم الكتاب هو الذى فى علم الله فلا محو فيه ألبتة ، ويقال له القضاء المبرم ويقال للأول القضاء المعلق .

— ومنها : أن الله يبقى أثر واصل الرحم فى الدنيا طويلا فلا يضمحل سريعا كما يضمحل أثر قاطع الرحم ، وينشر له ذكرا حسنا بين الناس فيذكرونه بالخير ، ويدعون له ويترحمون عليه ، ويلحقه من وراء ذلك ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، ومن هذه المادة قول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » . ولما أنشد أبو تمام قوله فى رثاء محمد بن حميد الطوسى :

توفيت الآمال بعد محمد
وأصبح فى شغل عن السفر السفر

قال أبو دلف : لم يمت من قيل فيه هذا الشعر .

— ومنها : أن يكون الرجل الذرية الصالحة من بعده .

وقد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن أبى الدرداء قال : ذكر عند رسول الله ﷺ (من وصل رحمه أنسىء له فى أجله فقال : إنه ليس زيادة فى عمره قال الله تعالى : (فإذا جاء أجلهم) الآية ، ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده) .

وللطبرانى أيضا فى الكبير من حديث أبى مدجعة الجهنى رفعه « إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر ذرية صالحة » الحديث .

وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر نفى الآفات عن صاحب البر فى فهمه وعقله ، وقال غيره : فى أعم من ذلك ، وفى وجود البركة فى رزقه وعلمه ونحو ذلك .

— وأقول : إنه لا مانع من تحقق هذه الوجوه كلها لبعض الواصلين لأرحامهم بحسب منازلهم فى الصلة فكلما ازداد إحسانهم إلى أقاربهم ازداد إحسان الله إليهم وعطاؤه لهـــم ، وحصول بعضها دون بعض لغيرهم كل بحسب حاله .

والحديث يقلب على الناس موازينهم المادية ويضع لهم ميزانا جديدا : ذلك أن من وصل رحمه فإنما يكون ذلك بإنفاقه جانباً من ماله وجزءا من وقته ، والإنفاق من الوقت فى نظر الناس مضيعة للعمر ، والإنفاق من المال منقصة له ، لكن الحديث يقول للناس : إن صلة الرحم بما يترتب عليها من إنفاق للوقت والمال ليست سببا فى ضياع العمر أو نقصانه ، ولا فى هلاك المال أو خسرانه ، وإنما هى سبب للبركة والنماء الحسى والمعنوى لذلك كله ، ورحم الله الإمام البخارى فإنه أورد هذا الحديث

فى كتاب البيوع كما أورده هنا فى كتاب الأدب وترجم له هناك بقوله (باب من بسط له فى الرزق لصلة رحمه) وهذا يتسق مع القواعد العامة التى وضعتها الشريعة وأكدتها فى نفوس المؤمنين ، قال تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) (سبأ : ٣٩) . وقال (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (الأنعام : ١٦٠) . وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل » .

— وبسط الرزق قد يكون على ظاهره بأن يزيد الله فى رزقه ببركة صلته لرحمه على نحو ما تقدم فى الوجه الثانى بأن يكون رزقه كذا إن وصل رحمه وكذا إن لم يصل ، ويعلم الله الملك بذلك ، ويكون فى علم الله أنه سيصل رحمه أو يقطع ، فما عند الملك هو الذى يمكن الزيادة فيه دون ما فى علم الله . وقد يكون المراد ببسط الرزق البركة فيه بصرف النوب عنه وعن صاحبه فى نفسه وأهله ، وتوفيقه فى إنفاقه على أتم الوجوه وأكمل الأحوال التى تعود عليه بالخير فى حياته وبعد وفاته .

هذا وقد رغب النبى ﷺ فى صلة الرحم ، وحذر من تقطيعها وبين بعض ما يترتب على صلة الرحم من بركات عاجلة وآجلة ، وما ينشأ عن القطيعة من شر وشؤم . وقرن القرآن الكريم بين صلة ما أمر الله به أن يوصل وبين التوفيق إلى الخير ، كما قرن بين القطيعة وبين الحرمان والخذلان ،

قال تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) (الرعد : ٢١)

وقال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر

الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار) (الرعد : ٢٥) .

— وفى الحديث (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة) رواه الترمذى مرفوعا من حديث سلمان بن عامر وقال حديث حسن .

— وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله) متفق عليه .

والله ولى التوفيق ، وهو الهادى لأقوم طريق .

٩ — مَنْ وصلَ رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللهُ

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : إنَّ اللهَ خلق الخلقَ حتى إذا فرغ من خَلْقِه قالتِ الرَّحِمُ : هذا مقامُ العائذِ بكَ مِنَ القَطيعة ، قال : نَعَمْ ، أما تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قالتْ : بلى يارب ، قال : فهو لكِ ، قال رسولُ الله ﷺ : فاقرأوا إنْ شئتم (فهل عسيتم — إن توليتم — أن تُفْسِدُوا في الأرضِ ، وَتُقَطِّعوا أرحامَكم) . متفق عليه . وهذا لفظ البخاري في « الأدب » .

الشرح والبيان

أخرج هذا الحديث البخاري رحمه الله في كتاب التفسير — سورة محمد ﷺ .

وأخرجه في كتاب الأدب — باب من وصل وصله الله .

وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب — باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها .

يدل هذا الحديث على تأكد حق الرحم ، ووجوب صلتها ، وأن ذلك من القرب العظام . التي من وفق لها فهو الموفق السعيد ، كما يدل على تحريم القطيعة وأنها من الذنوب الجسام ، أفرأيت كيف استجارت الرحم بربها فأجارها ، واستعاذت به من القطيعة فأجابها ، ووعدها بأن واصلها ، والقائم بحقوقها فهو منه سبحانه موصول ، وأن قاطعها فهو مقطوع محروم مخذول .

قوله ﷺ (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه) .

معنى (فرغ) قضى وأتم . والخلق : هو المخلوق — مصدر بمعنى اسم المفعول — والمراد به جميع المخلوقات، ويحتمل أن يكون المراد به المكلفين كما قرره الشيخ ابن أبي جمرة .

(قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة) .

الرحم هي القرابة ، وهي معنى لا ذات ، ومن هنا وقع الاختلاف في توجيه القول المنسوب إليها سنعرض له بعد قليل .

واسم الإشارة قد استبان بما بعده ، فالمعنى : هـــذا المقام مقام العائذ بك الخ .

والعائذ : هو المستجير من عاذ به إذا استجار ، ومنه الاستعاذة ، قال ابن كثير القرشي في صدر تفسيره : ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي أستجير بالله من الشيطان الرجيم أن يفتنني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله (التفسير ١/٣٠ ط الشعب) .

ثم متى كان هـذا القول ؟ لقد نقل صاحب الفتح عن الشيخ أبي محمد ابن جمرة ثلاثة احتمالات لذلك فقال :

— يحتمل أن يكون بعد خلق السموات والأرض ، وإبرازها إلى عالم الوجود .

— ويحتمل أن يكون بعد خلقها كتابة وتقديراً في اللوح المحفوظ ، ولم يبرز بعد إلا القلم واللوح .

— ويحتمل أن يكون بعد خلق أرواح بني آدم عند قوله تعالى (ألست

بربكم) لما أخرجهم من صلب آدم مثل الذر (١) انتهى .

أقول : وهذه الاحتمالات الثلاثة راجعة إلى الاحتمالات التى أوردها فى معنى الخلق ، وهى اثنان : انفصل عن الأول منهما احتمالان ، وأما الثانى فليس فيه إلا احتمال واحد .

هذا وقد اختلف أهل العلم فى القول المنسوب إلى الرحم فى هذا الحديث:

---

(١) يشير رحمه الله إلى ماورد من أحاديث وآثار عند قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (الأعراف : ١٧٢ — ١٧٣) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ملكهم ، وأنه لا إله إلا هو — كما أنه تعالى فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه ، قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » .

ثم قال : وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم وذكر طائفة منها ما بين مرفوع وموقوف (انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦١) .

هل هو على سبيل الحقيقة أو المجاز ؟ أو على جهة التقدير والتمثيل ؟ ثم هل تكلمت الرحم كما هي ؟ أو خلق الله لها حياة وعقلا ؟

— قال ابن أبي جمرة : يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن بلسان المقال : قولان مشهوران ، الثاني أرجح ، وعلى الثاني ، فهل تتكلم كما هي ، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا ؟ : قولان أيضاً مشهوران ، والأول أرجح : لصلاحية القدرة العامة لذلك .

— ولما في الأولين من تخصيص عموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل .

— ولما يلزم منه من حصر قدرة القادر التي لا يحصرها شيء .

وقال القاضي عياض ، الرحم التي تقطع وتوصل وتبر إنما هي معنى من المعاني ، ليست بجسم ، وإنما هي قرابة ونسب تجمعه رحم والدة ، ويتصل بعضه ببعض ، فسمي ذلك الاتصال رحما ، والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام ، فيكون ذكر كلامها هنا وتعلقها ضرب مثل ، وحسن استعارة ، على عادة العرب في استعمال ذلك ، والمراد تعظيم شأنها ، وفضيلة واصليها ، وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم ، لهذا سمي العقوق قطعاً ، والعق : الشق ، كأنه قطع ذلك السبب المتصل .

قال : ويجوز أن يكون المراد قام ملك من الملائكة ، وتكلم على لسانها بهذا بأمر الله تعالى .

قوله (قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟)

قوله سبحانه: نعم : معناها إجابة الرحم إلى ماطلبت ، ثم بين سبحانه هذه الاستجابة بقوله : أما ترضين الخ : والهمزة فيه للاستفهام ، وما هي النافية .

ولهذا وقع جواب الرحم بعدها بالحرف (بلى) وهو لإثبات ما بعد النفى ، أى أرضى بما وعدتنى : أن تصل من وصلنى وتقطع من قطعنى .

قال الشيخ أبو محمد ابن أبى جمرة : الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه ، وإنما خاطب الناس بما يفهمون ، ولما كان أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه الوصال ، وهو القرب منه ، وإسعافه بما يريد ومساعدته على ما يرضيه ، وكانت حقيقة ذلك مستحيلة فى حق الله تعالى عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده ، قال : وكذا القول فى القطع : هو كناية عن حرمان الإحسان .

وقال القرطبى : وسواء قلنا : إنه — يعنى القول المنسوب إلى الرحم — على سبيل المجاز أو الحقيقة ، أو أنه على جهة التقدير والتمثيل — كأن يكون المعنى : لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت كذا — ومثله فى القرآن (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا — الآية وفى آخرها — وتلك الأمثال نضربها للناس — فمقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم ، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره ، فأدخله فى حمايته ، وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول ، وقد قال ﷺ من صلى الصبح فهو فى ذمة الله ، وإن من يطلبه الله بذمته يدركه ، ثم يكبه على وجهه فى النار » أخرجه مسلم .

قوله (قال رسول الله ﷺ : فاقرأوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا أرحامكم) .

هذا صريح فى أن الاستشهاد بالآية مرفوع إلى النبى ﷺ ، ووقع فى رواية كتاب التفسير فى البخارى وقفه على أبى هريرة ، ولكن الراجح رواية من رفعه ، لأن الرفع زيادة ثقة ، وهى مقبولة عند جماهير المحدثين ، ثم إن من جاء عنه وقفه جاء عنه أيضا رفعه ، فدل على أنه قدوهم فيه فرواه على أنه موقوف فرارا من الزيادة .

أما تأويل الآية فقد قال النسفى رحمه الله : فلعلكم إن أعرضتم عن دين

رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتفاور ، والتناهب ، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ، ووأد البنات .

وقال غيره : (فهل عسيتم) أي فلعلكم (إن توليتم) الأمر والحكم أو إن توليتم بمعنى أعرضتم عن الإيمان والطاعة (أن تفسدوا في الأرض) بالعصيان، والقتل، والظلم، وأخذ الرشوة (وتقطعوا أرحامكم) لعادوا أهليكم ولا تبروهم (تفسير ابن الخطيب / ٦٢٦) فمعنى (إن توليتم) أي إن وليتم الأمر والحكم من الولاية، أو إن اعرضتم عن الإيمان بالله ورسوله، وعن الطاعة بالمسارعة فيما أمر به ، والاجتناب لما نهى عنه .

وقد رأيت ابن كثير فسرها بالإعراض عن الجهاد والنكوص عنه ، وكأنه أخذ ذلك من السياق الذي وردت فيه الآية ، وإلا فهي أعم ، والذي أراه راجحا ، بل متعينا أن التولي هنا بمعنى الإعراض عن الإيمان والطاعة، فإنه يتبع ذلك من الفساد والإفساد فوق ما يتصوره المتصورون ، وبخاصة إذا انضم إلى هذا التولي الولاية والحكم ، فهنا الطامة العظمى ، والبلية الكبرى ، نعوذ بالله ، ونسأله المزيد من فضله ورضاه .

هذا ، ونسأل الله الكريم أن يصل حبلنا بحبله ، ويجعلنا من أهل حبه وقربه ، ونضرع إليه أن يسلكنا بمنه وكرمه في سلك الواصلين الموصولين فإنه ولي ذلك والقادر عليه لاحول ولاقوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

١٠ — الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال « الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ، فقال الله : مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ » .

أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما في كتاب الأدب — باب من وصل وصله الله .

الشرح والبيان

(الرحم شجنة) الشجنة : عروق الشجر المشتبكة — وهي بكسر الشين المعجمة بعدها جيم ساكنة ، فنون — وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة كما قال الحافظ في الفتح — والشجن — بالتحريك — واحد الشجون : وهي طرق الأودية ، ومنه قولهم : الحديث ذو شجون أي يدخل بعضه في بعض ، ويتفرع بعضه من بعض .

(من الرحمن) أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث عبد الرحمن ابن عوف في السنن مرفوعا ، وهو حديث قدسي (أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته) .

والمعنى أن الرحم أثر من آثار الرحمة ، مشتبكة بها ، فالواصل لها متصل برحمة الله ، والقاطع لها منقطع من رحمة الله .

قال الإسماعيلي : معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة ، وليس معناه أنها من ذات الله .

(فقال الله) أو (فقال الله لها) كما في رواية الإسماعيلي ، وهذه الفاء عاطفة على شيء محذوف ، يقدر له ما يناسبه ، قال ابن حجر :

وأحسن ما يقدر له ما فى الحديث (فقالت : هذا مقام العائذ بك . . فقال الله الخ) وقد تقدم بتمامه.

(من وصلك وصلته) صـــلة الرحم قد تكون بالمـال ، أو بالزيارة والسؤال ، أو بقضاء الحاجات ، والمواساة فى المناسبات — وقد تقدم بيان عبارات العلماء فى ذلك ، أما صلة الله للذى يصل رحمه فهى مكافأته ومجازاته على الصلة بما يتناسب مع حاله ومقدار صلته، ومن أهم ما فى ذلك محبة الله له، وبسطه لرزقه ، وتوفيقه وإعانته ، وتيسير أموره ، وتفريج كروبه، وقضاء حاجاته ، وإجابة دعائه إلى غير ذلك من ألوان العطاء — فبان بذلك أن صلة الرحم ابتغاء مرضاة الله سبب لكل خير ، ومفتاح لكل توفيق ، وهى تجارة مع الله رابحة لمن أراد لنفسه خيرى الدنيا والآخرة .

(ومن قطعك قطعته) قطيعة الرحم هى الإعراض عنهم ، وإهمال أداء حقوقهم ، والابتعاد عنهم ، وقطع الله لعبده هى خذلانه وحرمانه ، فيظلم قلبه ، وتنطمس بصيرته ، وتسود صحيفته ، نعوذ بالله من ذلك .

وفى الحديث تعظيم أمر الرحم ، وفضل صلتها ، والترهيب من قطيعتها ، وأن الجزاء من جنس العمل، والله الموافق للصواب، وإليه المرجع والمآب، لاحول ولا قوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه.

١١ — لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ

عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال (ليس الواصلُ بالمُكافِئ ، ولكنَّ الواصلَ الذى إذا قطعتْ رَحِمُهُ وَصَلها) .

أخرجه البخارى فى كتاب الأدب — باب ليس الواصل بالمكافئ ٢٩/١٢

الشرح والبيان

(المكافئ): هو الذى يعطى لغيره نظيرما أعطاه ذلك الغير ، وقد أخرج عبد الرزاق عن عمر رضى الله عنه موقوفاً (ليس الوصل أن تصل من وصلك ، ذاك القصاص . ولكن الوصل أن تصل من قطعك)(ولكن)قال ابن حجر : قال الطيبى : الرواية فيه بالتشديد ، ويجوز التخفيف :

(. . الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها)أى ولكن الكامل فى صلة رحمه هو الذى إذاقطعه أرحامه ومنعوه وصلهم وأعطاهم،وإذا جهلوا عليه حلم عليهم،وإذا واجهوه بالإساءة قابلهم بالإحسان وتلك منزلة عظيمة، ودرجة رفيعة ، وفى صحيح مسلم (أن رجلا قال : يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحلم عنهم وهم يجهلون على ، وأحسن إليهم وهم يسيئون إلى، فقال له النبى ﷺ: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك) (وقطعت) ضبطت بوجهين : بفتحتين على البناء للمعلوم،ورحمه فاعل، وبضم فكسر على البناء للمجهول فهى نائب فاعل، والأكثر على الوجه الأول وهو البناء للمعلوم،وقد اختلفت عبارات أهل العلم فى بيان معنى هذا الحديث :

فقال الطيبى . المعنى : ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافئ صاحبه بمثل فعله ، ولكنه من يتفضل على صاحبه .

وقال العراقى فى شرح الترمذى: المراد بالواصل فى هذا الحديث الكامل، فإن فى المكافأة نوع صلة، بخلاف ما إذا وصله قريبه لم يكافئه فإن فيه قطعاً بإعراضه عن ذلك، وهو من قبيل «ليس الشديد بالصرعة» «ليس الغنى عن كثرة العرض» انتهى.

وقد عقب ابن حجر على كلام شيخه بقوله: لا يلزم من نفى الوصل ثبوت القطع، فهم ثلاث درجات: مواصل، ومكافىء، وقاطع، فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافىء الذى لا يزيد فى الإعطاء على ما يأخذه، والقاطع الذى يتفضل عليه ولا يتفضل، وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزى سمى من جازاه مكافئا — انتهى.

والحديث يشير إلى تفاوت الناس فى صلتهم لأرحامهم، وفيه الحث على تحصيل المرتبة العليا من الصلة، وفيه نفى الأمر، والمراد نفى الكمال فيه، وتقدم فى الحديث لذلك نظائر من كلام الصادق المصدوق ﷺ.

وفيه غير ذلك، والله أعلم، وهو أجل وأحكم.

١٢ ـ فَضْلُ الإِحْسَانِ إِلَى الْبَنَات

عن عائشةَ رضى اللهُ عنها أنها قالتْ : جاءتنى امرأةٌ معها ابنتان تسألُنى ، فلم تجدْ عندى غيرَ تمرةٍ واحدةٍ ، فأعطيتُها فقسمتْها بينَ ابنتيْها ، ثم قامتْ فخرجتْ ، فدخلَ النبىُّ ﷺ فحدثتُهُ فقال: من يَلِى مِنْ هَذِه البناتِ شيئاً فأحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ له سِتْراً مِنَ النارِ ، متفق عليه(١) .

الشرح والبيان

قول عائشة رضى الله عنها (جاءتنى امرأة معها ابنتان) .

أغفلت عائشة رضى الله عنها ذكر اسم المرأة وابنتيها وإن كان الحديث متضمنا مكرمة لها سترا عليها ، لأن مقام السؤال يتضمن القلة والذلة ، والإغفال فى مثل هذا الحال خلق كريم ، ومسلك حكيم ، والمراد بالسؤال هنا : طلب الصدقة .

وقولها (فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها) وفى رواية معمر زاد (ولم تأكل منها شيئاً) .

وقولها (ثم قامت فخرجت فدخل النبى ﷺ فحدثته) هكذا فى هذه

---

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢٦/٤

وأخرجه فى الأدب ـ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٣٢/١٣

وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ـ باب الإحسان إلى البنات .

الرواية ، وفى رواية أخرى ذكرها مسلم عن عائشة (جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهن تمرة ، ورفعت تمرة إلى فيها لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها فأعجبنى شأنها) .

وهذا الاختلاف الواقع محمول إما على تعدد الواقعـــة ، بأن تكون السائلة التى أعطتها التمرة غير التى أعطتها الثلاث ، أو يكون مرادها بقولها (فلم تجد عندى غير تمرة واحدة) أى أخصها بها لنفسها .

وهناك احتمال ثالث : وهو أن عائشة لم يكن عندها فى أول الأمر سوى تمرة واحدة فأعطتها إياها ، ثم وجدت بعد ذلك اثنتين فأعطتهما لها.

وقوله صلى الله عليه وسلم (من يلى من هذه البنات شيئاً) كذا هو لأكثر الرواة يلى — بالياء — من الولاية . وللكشميهنى ، بباء موحدة مضمومة .

وفى روايته أيضاً (بشىء) وروايته هكذا (من بلى من هذه البنات بشىء) وقوى رواية الكشميهنى القاضى عياض وأيدها برواية (من ابتلى) .

واختلف فى المراد بالبلاء أو الابتلاء : هل هو نفس وجودهن ؟ أو ابتلى بما يصدر منهن ؟ وكذلك هل هو على العموم فى البنات أو المراد من اتصف منهن بالحاجة .

والظاهر أن الابتلاء أنواع ودرجات ، وأنه متحقق بمجرد وجودهن ولكنه يشتد عندما تكون هناك حاجة تتطلب صبرا وجهادا ، وسيأتى من الأحاديث عن بعض الصحابة مايشهد لذلك ويؤكده .

وقوله (فأحسن إليهن) مشعر بأن مراد النهى ﷺ بقوله فى أول الحديث (من هذه) ماهو أكثر من واحدة .

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تبين هذا الإحسان وتفصله ، أورد أطرافا منها الحافظ ابن حجر فى « الفتح » .

فى حديث أنس عند مسلم (من عال جاريتين) وفى رواية لأحمد من حديث أم سلمة رضى الله عنها (من أنفق على ابنتين أوأختين أوذاتى قرابة يحتسب عليهما) وفى رواية (فصبر عليهن) وفى رواية (فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن) وفى حديث ابن عباس عند الطبرانى (فأنفق عليهن وزوجهن وأحسن أدبهن) وفى حديث جابر عند الإمام أحمد ، وفى الأدب المفرد للبخارى (يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن) زاد الطبرى فيه (ويزوجهن) وفى حديث أبى سعيد (فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن) .

وهذه الروايات المختلفة والأحاديث المتنوعة فى هذا الموضوع والتى خرجها المصنفون من أحاديث طائفة من الصحابة الكرام رضى الله عنهم تدل على أن الرسول ﷺ قد أكثر من النصح والمقال فى هذا المجال فأجمل وفصل،وأوجز وأطنب،ليؤكده فى نفوس المسلمين ، وليقتلع به ماعسى أن يكون لايزال عالقا بها من آثار الجاهلية من كراهية البنات ، واستقبالهن واستقبال خلفهن بقلوب منقبضة ، ونفوس حزينة مبتئسة .

فهذه الأوصاف الكثيرة التى ذكرتها هذه الأحاديث من النفقة ، والصبر عليهن ، وتقوى الله فيهن ، وإطعامهن وكسوتهن ، وإحسان أدبهن ، وتزويجهن : هذه الأوصاف كلها يجمعها لفظ الإحسان التى اقتصر ﷺ فى حديثنا هذا عليه .

والظاهر أن الإحسان هنا يتناول الإحسان الواجب ، والقدر الزائد فالإحسان الواجب كالطعام والكسوة والنفقة والصبر وحسن الأدب بالانتصار على ماوجب من ذلك .

والزائد مازاد على ذلك مما فيه إشعار البنت بكرامتها على وليها ، ورفع

روحها المعنوية ، وعدم تقديم الذكور عليها ، وعدم امتهانها بالعمل إلا فى حدود طاقتها ، وبما يتناسب مع نظائرها ، وحالة أسرتها .

على أن هناك أمرا لابد من التنبيه له ، وهو أن شرط الإحسان أن يكون موافقا الشرع الحكيم ، لا مخالفا له .

فليس من الإحسان أن تمكن البنت من الخروج والدخول دون رقيب أو حسيب .

وليس من الإحسان أن تترك لها الحرية فى اختيار ثيابها إذا ما خالفت عن نهج الشريعة فى أن تكون واسعة سابغة تغطى سائر جسمها ، لا تشف ولا تصف ولا تلفت إليها الإنظار ، ولا تفتن بها الناس .

وليس من الإحسان أن تترك لها الحرية فى أخذ زينتها خارج بيتها ووضع العطور والمساحيق وأصناف الزينة والإثارة .

وليس من الإحسان أن تترك لها الحرية فى الزيارات والمقابلات ، والخروج إلى النوادى والحفلات ، فإن هذا كله شر كبير وبلاء مستطير نسأل الله أن يدرأ عنا ضرره ، ويكف عن الأمة شره وخطره ، آمين .

والظاهر أن الثواب المذكور فى الحديث إنما يحصل لفاعله إذا استمر عليه إلى أن يحصل استغناؤهن عنه بزواج أو غيره ، كما أشارت إلى ذلك بعض الأحاديث ، والإحسان إلى كل واحدة منهن بحسب حالها .

هذا وقد جاء أن الثواب المذكور يحصل لمن أحسن إلى واحدة فقط ، ففى حديث أبى هريرة (قلنا : وثنتين ؟ قال : وثنتين ، قلنا : وواحدة قال : وواحدة) .

وفى الحديث فوائد كثيرة :

— فمنها تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالبا عن القيام بمصالح

أنفسهن ، بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن ، وجزالة الرأى ، وإمكان التصرف فى الأمور المحتاج إليها فى أكثر الأحوال .

— وفيه جواز السؤال لمن كان محتاجا .

— وسخاء عائشة لكونها لم تجد إلا تمرة فتصدقت بها ، وآثرت غيرها على نفسها .

— وأن القليل لا يمتنع التصدق به لحقارته ، بل ينبغى للمتصدق أن يتصدق بما تيسر له قل أو كثر .

— وفيه جواز ذكر المعروف إن لم يكن على وجه الفخر والمنة ، وأن ذلك لا ينقص الثواب ، ولا يحصل بذكره شين ولا عاب .

— وفيه أن المرء يؤجر فى الواجبات كما يؤجر فى المندوبات والمستحبات ، فالإحسان إلى البنات دائر بين الوجوب والاستحباب ، ومع هذا فقد رتب عليه النبى ﷺ هذا الثواب العظيم ، والفضل الجسيم ، وقد قال ﷺ (إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة) (متفق عليه) وفى حديث سعد بن أبى وقاص المتفق عليه ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها فى « فى » امرأتك) والله ولى التوفيق والهادى لأقوم طريق ، لا حول ولا قوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

١٣ — حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإِيمَان

عن عائشةَ رضى اللهُ عنها أنها قالتْ : ماغِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ ماغِرْتُ على خديجةَ ، ولقد هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يتزوَّجنى بثلاثِ سنين ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُه يذكرُها ، ولقد أَمَرَهُ ربُّه أَنْ يُبَشِّرَها بِبَيْتٍ فى الجنةِ مِنْ قَصَبٍ ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثم يُهْدِى فى خلائِها مِنْها . متفق عليه .

الشرح والبيان

أخرج الإمام البخارى رحمه الله تعالى هذا الحديث فى « كتاب الأدب » من صحيحه باب حسن العهد من الإيمان ، كما أخرجه فى « كتاب المناقب » باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رضى الله عنها .

وأخرجه مسلم فى « الفضائل » فضائل خديجة رضى الله عنها .

والسيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها هى أول من تزوجها ﷺ وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فتجتمع مع النبى ﷺ فى قصى ، وهى من أقرب نسائه إليه فى النسب ، ولم يتزوج من ذريه قصى غيرها إلا أم حبيبة وتزوجها ﷺ وله خمس وعشرون سنة فى قول الجمهور ، وزوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ، وقيل : عمها عمرو بن أسد ، وقيل: أخوها عمرو بن خويلد. وكانت قبله عند أبى هالة بن زرارة التميمى ، ومات أبو هالة فى الجاهلية، وكانت خديجة قبله عند عتيق بن عائذ المخزومى.

وكان النبى ﷺ قد سافر فى تجارة لخديجة إلى الشام ومعه غلامها ميسرة الذى رأى من كرامة محمد ﷺ على ربه ، وتيسير الأمور له وماله من صفات حميدة ، وأخلاق عظيمة ، وما ألقاه الله له من محبة وقبول فى قلوب عباده، مما رغب خديجة فى الزواج منه ﷺ .

وكانت خديجة تدعى فى الجاهلية : الطاهرة ، وماتت على الصحيح بعد المبعث بعشر سنين فى شهر رمضان ، فأقامت معه خمسا وعشرين سنة على الصحيح، أو دونها بأشهر، وقد سارعت بتصديق النبى ﷺ وثبتته، وكانت له وزير صدق، وحسبها ما كان منها حين عاد إليها صلوات الله عليه وسلامه من غار حراء بعد نزول الوحى عليه حين قال لها «لقد خشيت على نفسى» قالت : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق» .

وقد كانت رضى الله عنها حريصة على رضاه ، مسارعة إلى تصديقه والإيمان به ، والقربة عنده ، وقد كان ﷺ يحبها، ويكثر من ذكرها والثناء عليها ويصل صديقاتها ، وقال « إنى رزقت حبها » رواه مسلم من حديث عائشة، وقال « آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء» رواه أحمد من حديث عائشة أيضا .

قال القرطبى : كان حبه لها لما تقدم ذكره من الأسباب وهى كثيرة، كل منها كان سببا فى إيجاد المحبة ، ومما كافأ النبى ﷺ به خديجة فى الدنيا أنه لم يتزوج فى حياتها غيرها . وهذا مما لا اختلاف فيه بين أحد من أهل العلم. وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها، لأنها أغنته عن غيرها ، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين ، لأنه ﷺ عاش بعد أن زوجها ثمانية وثلاثين عاما ، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاما ، وهى نحو الثلثين من المجموع، ومع ذلك فصان قلبها من الغيرة، ومن تكدد الضرائر الذى ربما حصل له ﷺ منه ما يشوش عليه بذلك، وهى فضيلة لم يشاركها فيه غيرها .

ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان ، فمنت ذلك لكل

من آمنت بعدها ، وهي أفضل نسائه على الراجح وسيأتي لذلك مزيد تفصيل .

ومناقبها ومزاياها كثيرة فرضي الله عنها وأرضاها وعن سائر أمهات المؤمنين .

اختلف أهل العلم في المراد من العهد في هذه الترجمة التي وضعها الإمام البخاري لهذا الحديث في كتاب الأدب .

فقال أبو عبيد : العهد هنا رعاية الحرمة .

وقال عياض : هو الاحتفاظ بالشيء والملازمة له .

وقال الراغب : هو حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال .

وهذا اللفظ قد ورد في حديث يتعلق بخديجة رضي الله عنها أخرجه الحاكم والبيهقي من طريق صالح بن رستم ، عن ابن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت « جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال : كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت : بخير بأبي أنت وأمي يارسول الله ، فلما خرجت قلت : يارسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ فقال : ياعائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » وأخرجه البيهقي أيضا من طريق مسلم بن جنادة ، عن حفص بن غياث ، وعن هشام بن عروة ، عن عائشة مثله بمعنى القصة وقال : غريب ، ومن طريق أبي سلمة عن عائشة نحوه ، وإسناده ضعيف (فتح الباري ١٣/٤٢) .

وعهد الله تارة يكون بما ركزه في العقل ، وتارة يكون بما جاءت به الرسل وتارة يكون بما يلتزمه المكلف ابتداء كالنذر ، ومنه قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله) .

وأما لفظ العهد فى اللغة فله معان كثيرة : منها الزمان والمكان ، واليمين والذمة ، والصحبة ، والميثاق والإيمان ، والنصيحة والوصية والمطر .

قولها عائشة (ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة) .

الغيرة : هى الحمية والأنفة ، وغيرة المرأة سببها تخيل محبة غيرها أكثر منها .

و (على) هنا بمعنى (من) فى الموضعين، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، أو تكون (على) للسببية .

و (ما) الأولى نافية ، وأما الثانية فمصدرية .

وفى رواية أخرى (ماغرت على امرأة من نساء النبى ﷺ ماغرت على خديجة) .

والعبارة كلها تفيد أن عائشة رضى الله عنها كانت تصيبها الغيرة من نساء النبى ﷺ، وكانت غيرتها من السيدة خديجة رضى الله عنها أشد .

(ولقد هلكت قبل أن يتزوجنى بثلاث سنين ، لما كنت أسمعه يذكرها) .

الواو واو الحال ، وقد أشارت بهذا الكلام إلى أنها لو كانت موجودة لكانت غيرتها منها أشد ، وسبب الغيرة هو كثرة ذكره لها .

قال القرطبى : مرادها بالذكر لها مدحها والثناء عليها . ويقع فى بعض الروايات (من كثرة ذكره إياها ، وثنائه عليها) فعطف الثناء على الذكر من عطف الخاص على العام ، وهو يقتضى حمل الحديث على أعم مما قاله القرطبى — قاله ابن حجر فى الفتح .

والواقع أن ذكر الرجل لزوجه يكون بالكلام عن سيرتها ، وذكر صفاتها والثناء عليها . وكثرة الذكر تنبيء عن التعلق بها ، والتقدير لها وبخاصة مع فراقها ، وبعد العهد بها . وعن عائشة عند الطبرانى (وكان إذا ذكر خديجة لم يسأم من ثناء عليها ، واستغفار لها) .

(ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب) .

المراد بالقصب هنا : اللؤلؤ ، قال ابن التين : المراد به لؤلؤة مجوفة كالقصر المنيف .

قال ابن حجر : عند الطبرانى فى (الأوسط) من طريق أخرى عن ابن أبى أوفى يعنى قصب اللؤلؤ .

وعنده فى (الكبير) من حديث أبى هريرة (ببيت من لؤلؤة مجوفة) وأصله فى مسلم .

وعنده فى (الأوسط) من حديث فاطمة (قالت : قلت : يارسول الله أين أمى خديجة ؟ قال : فى بيت من قصب ، قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر والياقوت) .

وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيح لهذا الحديث قال : (أتى جبريل النبى ﷺ فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب) .

زاد الطبرانى فى الرواية المذكورة ،فقالت : هو السلام ، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام » .

والنسائى من حديث أنس قال : قال جبريل للنبى ﷺ : إن الله يقرئه

خديجة السلام (يعني فأخبرها) فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يارسول الله السلام ورحمة الله وبركاته».

وزاد ابن السني من وجه آخر: وعلى من سمع السلام إلا الشيطان.

قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها لأنها لم تقل: وعليه السلام، كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد: السلام على الله، فنهاهم النبي ﷺ وقال «إن الله هو السلام فقولوا: التحيات لله».

فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين لأن السلام اسم من أسماء الله، وهو أيضا دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله، فكأنها قالت: كيف أقول: عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل. فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه، فجعلت مكان رد السلام عليه الثناء عليه.

ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره فقالت: وعلى جبريل السلام ثم قالت، وعليك السلام.

ويستفاد منه رد السلام على من أرسله، وعلى من بلغه.

والذي يظهر أن جبريل كان حاضرا عند جوابها، فردت عليه وعلى النبي ﷺ مرتين: مرة بالتخصيص: ومرة بالتعميم — ثم أخرجت الشيطان ممن سمع لأنه لا يستحق الدعاء بذلك.

والصخب: هو الصياح والمنازعة برفع الصوت. والنصب: هو التعب. قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين أعني المنازعة والتعب أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعا فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل تعب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها.

والنكتة فى قوله (من قصب) ولم يقل من لؤلؤ أن فى لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة فى جميع ألفاظ الحديث. ذكره ابن حجر فى الفتح ، ثم قال : وفى القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنا بيبه ، وكذا كان لخديجة من الاستواء ماليس لغيرها إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن ، ولم تغضبه قط كما وقع لغيرها .

وأما قوله (ببيت) فقال أبو بكر الإسكاف فى فوائد الأخبار : المراد بيت زائد على ما أعد الله لها من ثواب عملها ، ولهذا قال « لانصب فيه » أى لم تتعب بسببه .

قال السهيلى : فذكر البيت معنى لطيف، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث ثم صارت ربة بيت فى الإسلام منفردة به ، فلم يكن على وجه الأرض فى أول يوم بعث النبى ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهى فضيلة ماشاركها فيها غيرها ، وجزاء الفعل يذكر غالبا بلفظه وإن كان أشرف منه ، فلذا جاء فى الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر . انتهى .

ثم قال ابن حجر : وفى ذكر البيت معنى آخر ، لأن مرجع أهل بيت النبى ﷺ إليها ، لما ثبت فى تفسير قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قالت أم سلمة : لما نزلت دعا النبى ﷺ فاطمة وعليا والحسن والحسين فجللهم بكساء فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى، الحديث أخرجه الترمذى وغيره ، ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة لأن الحسنين من فاطمة ، وفاطمة بنتها ، وعلى نشأ فى بيت خديجة وهو صغير ، ثم تزوج بنتها بعدها ، فظهر رجوع أهل البيت النبوى إلى خديجة دون غيرها .

وقوله (وإن كان ليذبح الشاة ثم يهدى فى خلتها منها) .

إن هى المخففة من الثقيلة ، وخلتها — بضم الخاء — أى خلائها وهن صدیقاتها . قال الخطابى : الخلة مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجماعة ، تقول : رجل خلة ، وامرأة خلة ، وقوم خلة ، ويحتمل أن يكون فيه محذوف تقديره إلى أهل خلتها ، أى أهل صداقتها ، والخلة الصداقة ، والخليل الصديق .

وفى كتاب المناقب من صحيح البخارى وغيره ، (ثم يهدى فى خلائلها مايسعهن) وللبخارى فى « الأدب المفرد » من حديث أنس « كان النبى ﷺ إذا أتى بالشىء يقول : اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة » .

ما يستنبط من الحديث :

وفى الحديث — كما قال النووى — دلالة لحسن العهد ، وحفظ الود ، ورعاية حرمة الصاحب حيا وميتا ، وإكرام معارف ذلك الصاحب .

وفيه ثبوت الغيرة ، وأنه غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عمن دونهن .

وفيه فضل خديجة رضى الله عنها وتقدمها على سائر أمهات المؤمنين والمسألة موضع خلاف بين أهل العلم فى التفضيل بين خديجة وعائشة ، وإن كان الراجح — كما قال ابن حجر فى كتاب المناقب من فتح البارى — أفضلية خديجة بهذا الحديث وغيره .

والله الموفق للصواب ، إليه أدعو ، وإليه مآب .

١٤- الْوَصِيَّةُ بِالْجَار

عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنه قال : قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ « مازال جبريلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنه سَيُوَرِّثُه » متفق عليه(١) .

الشرح والبيان

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل، العابد الزاهد، الورع المجاهد: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي .

أسلم قديما وهو صغير ، وهاجر مع أبيه ، وقيل : قبله ، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وشهد من بعده واقعة اليرموك، وفتح مصر وأفريقية ، وكان شديد الاتباع لرسول الله ﷺ .

روى عن النبي ﷺ ، وعن أبيه، وعمه زيد، وأخته حفصة أم المؤمنين، وأبي بكر ، وعثمان ، وعلي ، وبلال ، وزيد بن ثابت ، وصهيب ، وعبد الله ابن مسعود ، وعائشة ، ورافع بن خديج ، وغيرهم .

وروى عنه خلق كثير : فمن الصحابة ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، والأغر المزني ، وغيرهم — وروى عنه من التابعين أولاده الأربعة : بلال وحمزة ، وسالم ، وعبد الله ، ومولاه نافع، وأسلم مولى أبيه عمر ، وزيد بن أسلم ، وأخوه خالد ، وعروة بن الزبير ، وغيرهم .

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) باب الوصاة بالجار ١٣/ ٤٨
وأخرجه مسلم في (البر والصلة والآداب) ١٦/ ١٨٦
كلاهما من حديث ابن عمر ، وعائشة رضي الله عنهما ، ولفظهما سواء .

وكان رضى الله عنه حريصا على العلم ، مواظبا على قيام الليل ، يحضر إذا حضر ، ويسأل عن قول الرسول ﷺ وفعله إذا غاب .

وقد جنبه أبوه الخلافة ، وجعل رأيه استشاريا فقط ، لذلك كان رضى الله عنه على الحياد ، لم يدخل فى شىء من الفتن والحروب التى وقعت ، وتوفر على العلم والعبادة .

كان عبد الله من المكثرين لرواية الحديث عن الرسول ﷺ ، وذلك لأسباب كثيرة ، وقد امتد به العمر ، وطالت حياته ، وتوفى فى سنة (٧٣) ثلاثة وسبعين من الهجرة عن (٨٧) سبعة وثمانين عاما ، وانتفع الناس بعمله ، ورأيه ، وقدمت عليه وفود الناس ، فرضى الله عنه وأرضاه .

معنى هذا الحديث :

أن جبريل عليه السلام أوصى رسول الله ﷺ بالجار ، وبالغ فى الوصية به ، حتى ظن النبى ﷺ أن جبريل سيبلغه عن ربه بأنه سبحانه سيجعل للجار نصيبا من الميراث فى مال جاره — وذلك ليبلغ ﷺ بذلك أمته .

هذا ولم يرد فى شىء من طرق هذا الحديث بيان ما أوصى به جبريل النبى عليه الصلاة والسلام ، ولكن بتأمل الأحاديث الواردة فى رعاية حقوق الجار نستطيع أن نتبين نحوى هذه الوصايا إجمالا ، فقد قال ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . . . » .

وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . . . » .

وقال « يانساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » .

وقال « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من

يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه ، وكل هذه الأحاديث فى الصحيح ولها نظائر كثيرة .

فهى إذن إكرامه ، والإحسان إليه ، وصرف الأذى عنه ، ومن ذلك الهدية إليه ، وقضاء حاجاته ، والسؤال عنه ، وصيانة أسراره .

وقال ابن أبى جمرة رحمه الله تعالى : حفظ الجار من كمال الإيمان ، وكان أهل الجاهلية يحافظون عليه .

ويحصل امتثال الوصية به بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة ، كالهدية والسلام ، وطلاقة الوجه عند لقائه ، وتفقد حاله ومعاونته فيما يحتاج إليه إلى غير ذلك ، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعها ، حسية كانت أو معنوية ، وقد نفى ﷺ الإيمان عمن لم يأمن جاره بوائقه ، وهى مبالغة تنبىء عن تعظيم حق الجار ، وأن الإضرار به من الكبائر .

هـــذا وقد وقع اختلاف فى المراد بهذا التوريث فى الحديث ، والصواب فيه أنه سيجعل له نصيباً من ماله ويكون له سهم يعطى له مع الأقارب .

وأما من قال : إن المراد أنه ينزل منزلة من يرث بالبر والصلة فهو بعيد من الصواب - لأن هذا مستمر ، ولفظ الحديث مشعر بأن التوريث لم يقع .

والجار يطلق على المجاور فى الدار ونحوه - وهو الأعم الأغلب - ويطلق على الداخل فى الجوار - والمراد فى الحديث الأول ، لأن الجار بمعنى الداخل فى الجوار كان يرث ويورث ، ثم نسخ الله ذلك ، فإن كان هذا الحديث صدر قبل نسخ التوريث فقد كان التوريث ثابتاً فكيف

يترجى وقوعه ؟ وإن كان بعد النسخ فكيف يظن رجوعه بعد رفعه ؟

واسم الجار يشمل كل جار ، مسلماً كان أو كافراً ، تقياً أو فاجراً ، صديقاً أو عدواً ، نافعاً أو ضاراً ، قريب الدار أو بعيدها ، وله مراتب بعضها أعلى من بعض ، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات كلها ، ثم أكثرها وهلم جرا ، كل حسب حاله .

قال ابن حجر : وقد وردت الإشارة إلى ما ذكرته - في حديث مرفوع أخرجه الطبراني من حديث جابر رفعه « الجيران ثلاثة : جار له حق ، وهو المشرك ، له حق الجوار وجار له حقان ، وهو المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له ثلاثة حقوق : مسلم له رحم ، له حق الجوار والإسلام والرحم » .

هذا وقد نقل ابن حجر في الفتح ما يفيد بيان سبب الحديث فقال : ولأحمد من حديث رجل من الأنصار « خرجت أريد النبي ﷺ ، فإذا به قائم ورجل مقبل عليه ، فجعلت أرثي له من طول القيام ، فذكرت له ذلك ، فقال : أتدري من هذا ؟ قلت : لا ، قال : هذا جبريل ، فذكر مثل حديث ابن عمر سواء ، وأخرج عبد بن حميد نحوه من حديث جابر . انتهى كلام ابن حجر .

هذا والوصية بالجار سبب عظيم من أسباب التراحم ، والتوادد والتعاطف ، والتعاون على الخير ، فإن الله كما أوصاك بجارك فقد أوصى جارك بك ، ولو التزم المسلمون هذه النصائح الغالية لسعدوا واستراحوا ، وعاشوا متحابين متعاونين .

وفي الحديث تعظيم حق الجار ، وأن صور رعاية هذه الحقوق كثيرة ، وأن تعظيم حق الجار وإكرامه وصرف الأذى عنه من الإيمان ، وأن الإضرار به في نفسه ، أو أهله ، أو ماله من الكبائر .

وقد أخذ منه ابن أبي جمرة ألوانا من العلم اللطيف الذي يدق مأخذه فقال : يستفاد من الحديث أن من أكثر من شيء من أعمال البر يرجى له الانتقال إلى ماهو أعلى منه .

وأن الظن إذا كان في طريق الخير جاز ولو لم يقع المظنون ، بخلاف ما إذا كان يقع في طريق الشر .

وفيه جواز الطمع في الفضل إذا توالت النعم .

وفيه جواز التحدث بما يقع في النفس من أمور الخير والله أعلم .

وهو أجل وأحكم

١٥- مَنْ كان يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُكْرِم جارَه

(عَنْ أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه أنه قال : قال رسولُ الله ﷺ «مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يُؤْذِ جارَه ، ومَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُكْرِم ضيفَه ، ومَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خيراً أو لِيَصْمُتْ) .

رواه الشيخان(١) .

الشرح والبيان

قوله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره).

المراد بالمؤمن هنا من كان يؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، أي بكل مايجب الإيمان به ، وإنما ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدإ والمعاد ، فالله هو الذي خلقهم وإليه يرجعون، فيحاسبهم على ما كان منهم، وما اقترفوه من حسنات وسيئات - والمعنى : من كان يؤمن بالله الذي خلقه وصوره ، وشق سمعه

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب من حديث أبي هريرة في موضعين :

الأول : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ١٣/٥٣

الثاني : باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه وقوله تعالى (ضيف إبراهيم المكرمين) ١٢/١٤٨

وأخرج نحوه من حيث أبي شريح العدوي بتغيير طفيف في ألفاظه وزيادة يسيرة ، أخرجه في البابين كليهما .

وبصره ، وبأنه سيجازيه بأعماله ، إذ لا يخفى عليه ـ سبحانه ـ شيء من أفعاله وأحواله فليفعل هذه الخصال المذكورة فإنها من مقتضيات الإيمان الصادق.

(فلا يؤذ جاره) ، وفى حديث أبى شريح العدوى (فليكرم جاره) وفى حديث أبى هريرة عند مسلم من طريق أخرى (فليحسن إلى جاره) .

وهذه روايات يكمل بعضها بعضاً ، وهى محمولة على أن بعض الرواة حفظ مالم يحفظ الآخر ، أو يكون الرسول ﷺ ذكر هذه الألفاظ جميعاً فى مناسبات مختلفة ، فحفظ كل راو ماسمع .

وقد حذر النبى ﷺ من إيذاء الجار ، وأوصى بكف الأذى عنه ، وبين أن من لم يكن جاره آمناً مطمئناً من أذاه بالقول والفعل فى نفسه وأهله وماله فلا يكون مؤمناً ، يقول النبى ﷺ (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن قيل: ومن يارسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه) والبوائق هى الدواهى ، وقد سئل عنها النبى ﷺ فى حديث آخر فقال (غشمه وظلمه) . ومعنى هذا الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره أنه لا يكفى أن يسلم الجار من أذى جاره ، بل لابد أن يكون مطمئن القلب ، إلى أنه لن يصله منه شيء من الأذى قل أو جل .

قال ابن حجر فى الفتح : وقد ورد تفسير الإكرام والإحسان للجار وترك أذاه فى عدة أحاديث .

أخرجها الطبرانى من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

والخرائطى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وأبو الشيخ من حديث معاذ بن جبل .

(الخرائطى فى (مكارم الأخلاق) وأبو الشيخ فى (التوبيخ) .

(قالوا : يارسول الله ، ماحق الجار على جاره ؟ قال : إن استقرضك أقرضته ، وإن استعانك أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن احتاج أعطيته ،

وان افتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له ، وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده) .

ثم قال : وألفاظهم متقاربة . واللفظ أكثره لعمرو بن شعيب ، وفى حديث بهز بن حكيم (وإن أعوز ستره) .

ثم قال : وأسانيدهم واهية لكن اختلاف مخارجها يشعر بأن للحديث أصلا .

ثم الأمر بإكرام الجار يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية ، وقد يكون مستحبا ، ويجمع الجميع أنه من مكارم الأخلاق .

(ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) وفى حديث أبى شريح (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما بعد ذلك فهو صدقة) .

إكرام الضيف من مكارم الأخلاق التى أمرت بها الشرائع ، وحثت عليها هذه الشريعة الخاتمة ، وربطت بينها وبين الإيمان ، وجعلت الضيف حقا على من نزل عليه كحق الجوار وحق القرابة .

وإكرام الضيف هو البشاشة فى وجهه ، وحسن استقباله ، وإكرام مثواه ، وإحسان ضيافته وقراه . ومن الكلمات المشهورة بين الناس فى الريف : الكرم شهم عين : وجه بشوش ، وكلام لين .

ومن كلمات العامة فى ريف مصر (لا قينى ولا تغدينى ـ ضيف الشتا

غطيه ولا تعشيه) فالأول يشير إلى أهمية حسن الاستقبال ، وأنه فى أهميته مقدم على الطعام — والثانى يشير إلى ما هو أهم للضيف فى مثل هذا الحال ، والمثلان كلاهما يشير إلى أن الطعام والشراب والقرى ليست هى كل الأمور المهمة فى إكرام الضيف ، بل هناك أمور أخرى أهم منها ، تسبقها وتتقدم عليها ، وأن إكرام الضيف لا يقع موقعه إلا بمراعاتها .

وحديث أبى شريح يدل على أن الضيف له حق الإكرام والإتحاف والإلطاف والزيادة فى البر ، والتكلف له يوما وليلة ، ثم له بقية الأيام الثلاثة يقدم له ما حضر من غير أن يتكلف له . وما زاد عن ذلك فهو صدقة .

وقد اختلف أهل العلم فى الضيافة : هل هى واجبة أو هى حق للضيف فى المروءة ومكارم الأخلاق ، فهى مندوبة أو سنة مؤكدة ؟ قولان مشهوران .

١ — استدل من ذهب إلى الوجوب بما جاء فى هذا الحديث (وما زاد عن ذلك فهو صدقة) ، فهو يشير إلى أن ما يكون فى الأيام الثلاثة واجب ، فإن المراد بتسميته صدقة التنفير عنه ، لأن كثيرا من الناس خصوصا الأغنياء يأنفون غاليا من أكل الصدقة .

— واستدلوا كذلك بحديث عقبة بن عامر الجهنى فى الصحيح (أنه قال : قلنا : يارسول الله ، إنك تبعثنا فنزل بقوم لا يقرونا فما ترى فيه ؟ قال : إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم) رواه البخارى فى مواطن من كتابه — وتكلم عليه الحافظ ابن حجر فى كتاب المظالم ٦ | ٣٣) .

قال ابن حجر : وظاهر هـذا الحديث أن قرى الضيف واجب ، وأن المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أخذ منه قهرا وقال به الليث ابن سعد مطلقا ، وخصه أحمد بأهل البوادى دون أهل القرى .

٢ — وقال جمهور أهل العلم : الضيافة سنة مؤكدة ، وأجابوا عن حديث عقبة بأجوبة منها : —

(١) حمله على المضطرين ، ثم اختلفوا : هـل يلزم المضطر العوض أولا ؟ وأشار الترمذى إلى أنه محمول على من طلب الشراء فامتنع صاحب الطعام فله أن يأخذه منه كرها .

(٢) أن ذلك فى أول الاسلام ، وكانت المواساة واجبة ، فلما فتحت الفتوح نسخ ذلك .

(٣) أن ذلك مخصوص بالعمال المبعوثين من قبل الإمام .

وأقوى هذه الأجوبة — كما قال ابن حجر فى الفتح — القول الأول .

(ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)

أطبق أهل العلم على أن هذه النصيحة من جوامع كلمه ﷺ ، وبينوا ذلك بأن القول بجميع أنواعه إما خير ، وإما شر ، وإما آيل إلى أحدهما ، فدخل فى الخير كل ما طلبته الشريعة من قول فرضا كان أو ندبا فأذن فيه على اختلاف أنواعه . ودخل فيه كذلك ما يئول إلى الخير ، ويؤدى إليه .

وما عدا ذلك مما هو شر ، أو يئول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت . قال ابن حجر : وقد أخرج الطبرانى والبيهقى فى (الزهد)

من حديث أبي أمامة نحو حديث الباب بلفظ (فليقل خيرا ليغنم ، أو ليسكت عن شر ليسلم) .

هذا واللسان ترجمان للقلب . فإن كان القلب سليما مستقيما ، فيه العلم والحكمة ، والخشية والرحمة ، والرضا والمكينة ، والسماحة والطمأنينة ، والتماس المعاذير لعباد الله ، وحمل أمورهم على الخير والصلاح ما أمكن ، وإحسان الظن بهم فإن هذا يظهر على اللسان ، وفي ثنايا الكلام من غير ما تدبر أو تفكر ، ذكرا لله ، ووضاً بمقاديره ، وإحساناً الظن بعباده .

وإن كان القلب سقيما معوجا ، تضب فيه معين الخير ، والت فيه نوازع الفضيلة ، ظهر هذا في فلتات اللسان من غير ما تأمل ولا روية سخطا على المقادير ، وإساءة الظن بعباد الله ، وسبا ولعناً ، وبغضاً وضجراً .

ومن هنا نستطيع أن نفهم قول النبي ﷺ (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم) (رواه البخاري من حديث أبي هريرة) وقوله (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب) (رواه الشيخان من حديث أبي هريرة) وقوله (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم لقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه) (رواه مالك في الموطا والترمذي وقال: حسن صحيح — من حديث بلال بن الحارث المزني) ،

وعن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : قلت : يارسول الله : حدثنى بأمر أعتصم به : قال ، قل ربى الله ، ثم استقم ، قلت: يارسول الله ما أخوف ما تخاف على؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال : هذا) (رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح) — وعن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه أنه قال : قلت : يارسول الله ، ما النجاة ، قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك) (رواه الترمذى وقال: حديث حسن) فبدأ باللسان قبل غيره .

— وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى) (رواه الترمذى) .

والله ولى التوفيق ، والهادى لأقوم طريق

١٦ — علامات حب الله تعالى لعبده

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » متفق عليه .

الشرح والبيان

الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب — باب المقت من الله ، وكتاب التوحيد — باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة .

وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب .

وأفاد ابن حجر أن الامام أحمد رواه من حديث ثوبان ، وكذا الطبراني في الأوسط .

وأفاد أيضا أن الإمام أحمد رواه كذلك من حديث أبي أمامة .

قوله ﷺ (إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه) .

وقع في بعض طرق هذا الحديث بيان سبب هذه المحبة ، والمراد بها ، ففي حديث ثوبان « إن العبد ليلتمس مرضاة الله تعالى ، فلا يزال كذلك حتى يقول : يا جبريل ، إن عبدي فلانا يلتمس أن يرضيني ، ألا وإن رحمتي غلبت عليه » — الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط .

والتماس مرضاة الله يكون بالمسارعة في طاعته ، والفرار من معصيته ، وموالاة أوليائه ، والغيرة على دينه ، والحب له ، والتعلق به ، والحب فيه ، والبغض فيه ، ومن أظهر ما يحقق للعبد ذلك أن يسارع إلى أداء ما افترض ربه عليه ، طيبة بذلك نفسه ، منشرحا صدره ، قريرة عينه ، وبتوخى أن

يكون أداؤه لهذه الفرائض على أتم أحوالها ، وأكمل وجوهها ، ثم يستزيد بعد ذلك من النوافل والعبادات .

وفى الحديث القدسى الذى أخرجه الإمام البخارى فى الرقاق من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : إن الله تعالى قال : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وقدمه التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه . . الحديث » .

وقد وقع فى حديث ثوبان « فيقول جبريل ، رحمة الله على فلان ، وتقوله حملة العرش » .

(فينادى جبريل فى أهل السماء) فى حديث ثوبان (أهل السموات السبع) (ثم يوضع له القبول فى الأرض) وفى حديث ثوبان عند الطبرانى « ثم يهبط إلى الأرض ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .

قال ابن حجر . وثبتت هذه الزيادة فى آخر هذا الحديث عند الترمذى وابن أبى حاتم من طريق سهيل ، عن أبيه ، وقد أخرج مسلم إسنادها ولم يسق اللفظ ، وزاد مسلم فيه « وإذا أبغض عبدا دعا جبريل ، فيقول : إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض » .

والمراد بالقبول فى الحديث : قبول القلوب له بالمحبة ، والميل إليه ، والرضا عنه .

ما يؤخذ من الحديث :

ويؤخذ منه أن محبة الناس للعبد دليل على محبة الله سبحانه له ، ويشهد له حديث .

« يوشك أن تعرفوا خياركم من شراركم ؟ قالوا : بم يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن ، والثناء السيء ، أنتم شهداء الله فى الأرض » .

والمراد بمحبة الله للعبد إرادته الخير له ، وتوفيقه له ، وإعانته عليه ، وحصول الثواب له .

والمراد بمحبة الملائكة استغفارهم له ، وإرادتهم خير الدارين له ، وميل قلوبهم إليه ، لكونه مطيعاً لله ، محباً له .

قال الشيخ أبو محمد ابن أبي جمرة : فى تعبيره عن كثرة الإحسان بالحب تأنيس العباد ، وإدخال المسرة عليهم ، لأن العبد إذا سمع عن مولاه أنه يحبه حصل على أعلى السرور عنده ، وتحقق بكل خير .

ثم قال : وهذا إنما يتأتى لمن فى طبعه فتوة ، ومروءة ، وحسن إنابة كما قال تعالى (وما يتذكر إلا من ينيب) وأما من فى نفسه رعونة ، وله شهوة غالبة فلا يرده إلا الزجر بالتعنيف والضرب ، قال : وفى تقديم الأمر بذلك لجبريل قبل غيره من الملائكة إظهار لرفيع منزلته عند الله تعالى على غيره منهم .

قال : ويؤخذ من هذا الحديث الحث على توفية أعمال البر فرضها وسننها .

ويؤخذ منه أيضاً كثرة التحذير عن المعاصى والبدع ، لأنها مظنة السخط وبالله التوفيق .

والمراد بمحبة العباد له اعتقادهم فيه الخير ، وإرادتهم دفع الشر عنه ما أمكن .

وقد تطلق محبة الله تعالى الشيء على إرادة إيجاده، وعلى إرادة تكميله، والمحبة فى الحديث من القبيل الثانى ، والحب ثلاثة أقسام: إلهى، وروحانى، وطبيعى ، والحديث مشتمل على هذه الأنواع الثلاثة :

فحب الله العبد حب إلهى ، وحب جبريل والملائكة حب روحانى ، وحب العباد له حب طبيعى .

ويؤخذ من الحديث كذلك — من رواية مسلم — أن بغض الناس العبد دليل على بغض الله له ، وأنه محروم مخذول ، والحديث المتقـــدم شاهد لذلك أيضاً .

وإذا كان الحب من الله وعباده أسبابه وثمراته . فالبغض كذلك أسبابه ونتائجه ، وأول أسباب البغض الإعراض عن الله ، وكفران نعمته ، والتقصير فى الطاعات، وعدم المبالاة باقتراف السيئات، وانتهاك الحرمات، والوقوع فى أعراض الناس ، وإيذاؤهم بالقول، والفعل، والظن، وتجاوز الحدود .

وما من راع إلا وهو عرضة لهذا اللون من الحب أو البغض على قدر مايرعى من مسؤليته ، ويقسط فى حكمه وولايته ، قلت أوعظمت .

فمن عامل الناس بالرفق بهم ، والإنصاف لهم ، وقيادتهم إلى الخير والبر ، وزجرهم عن الشرور والآثام كان له من ربه ومن عباده الحب والود ، ومن شق على العباد ، وسامهم سوء العذاب ، وجار فى حكمه ، وتقدم لديه المنافقون ، وتأخر المخلصون الصادقون ، حقت عليهم لعنة الله ، وعباده وأبغضه أهل السموات ، وأهل الأرض .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم : الذين تبغضونهم ، ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم : قال : قلنا : يارسول الله : أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، لاما أقاموا فيكم الصلاة » .

رواه مسلم من حديث عوف بن مالك ، ومعنى تصلون عليهم : تدعون لهم : والله أعلم وهو أجل وأحكم .

١٧ — فَضْلُ الْحُبِّ فى الله

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ (إن الله يقولُ يومَ القيامة: أين المتحابُّون بجلالى؟ اليومَ أُظِلُّهم بظلى يومَ لا ظلَّ إلا ظلّى). رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب.

الشرح والبيان

قوله ﷺ «إن الله يقول يوم القيامة»:

قال الإمام النووى: فيه دليل لجواز قول الانسان: الله يقول، وهو الصواب الذى عليه العلماء كافة إلا ما ذكرناه فى كتاب الإيمان عن بعض السلف من كراهة ذلك، وأنه لا يقال: يقول الله، بل يقال: قال الله، وقدمنا أنه جاء بجوازه القرآن فى قوله «والله يقول الحق...» وأحاديث كثيرة صحيحة. اهـ (والآية التى ذكرها هى الآية الرابعة من سورة الأحزاب بل بعض هذه الآية.

وقوله سبحانه (أين المتحابون بجلالى).

الباء السببية أى أين الذين كانوا فى الدنيا يحب بعضهم بعضا ويزور بعضهم بعضا ويبذل بعضهم لبعض، ويجلس أحدهم إلى صاحبه بسبب تعظيم حقى وطاعتى والتعاون على مرضاتى، والتسابق فى ما يقرب منى. وهذا يدل على أن هذه الصلة التى كانت تربط بينهم كانت خالصة لوجه الله الكريم، ولم تكن لسبب من أسباب الدنيا.

والله سبحانه عليم بعباده، لا يحتاج إلى أن يسأل أحدا عنهم، وإذن فالمقصود من هذا القول — والله أعلم — التنويه بشأن المتحابين فيه، وإظهار كرامتهم عليه، وتبشيرهم على أكمل الوجوه.

وقد ذكر النبي ﷺ ذلك لأمته ليرغبوا في هذا الخير العظيم، ويعملوا لنيل هذا العطاء الجسيم، الذي هو غاية ما يتمناه المسلم الصادق الذي عرف الله فآثر رضاه، وعرف الدنيا فلم يغتر بها، وعرف الآخرة فرغب فيها، وسعى لها سعيها.

وقوله سبحانه «اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

الإضافة في كلمة «ظلي» إضافة تشريف واختصاص وتشريف، لأن الظلال كلها خلق الله تعالى.

والحق تبارك وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث، فظاهر هذا الحديث غير مراد، فالله تعالى منزه عن الظل، وهذا أمر متفق عليه فما المراد بظل الله إذن؟

(ا) ذهب جماعة إلى أن المراد ظل عرش الله سبحانه.

فالكلام إذن من قبيل مجاز الحذف، ويؤيد هذا التأويل ما جاء في صحيح مسلم «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله» فقد جاءت فيه رواية أخرى «سبعة يظلهم الله بظل عرشه» قال القاضي، وظاهره أنه سبحانه يظلهم الله في ظله حقيقة من حر الشمس ووهج الموقف، وأنفاس الخلائق، قال: وهو تأويل الأكثر.

(ب) وذهب جماعة إلى أن المراد بظل الله كلاءته وحفظه ورعايته أي أنهم في كلاءته ورعايته، فالحديث إذن من قبيل الكناية، قال عيسى بن دينار: هو كناية عن حفظهم من المكاره، وإكرامهم، وجعلهم في كنفه سبحانه وستره. ومنه قولهم: السلطان ظل الله في الأرض.

(ج) وقيل: الظل هنا عبارة عن الراحة والنعيم، من قولهم: عيش ظليل، أي طيب هنيء مريء، والظل على هذا القول مجاز أيضا، لأن الظل هو مكان الراحة والنعيم من هواجر التعب والشقاء.

والقول الأول مستلزم للقولين الآخرين، لأن من أظله الله سبحانه بظل عرشه فهو فى كنف الله وستره ورعايته، وهو كذلك فى روح وراحة ونعيم. وقوله (يوم لاظل إلا ظلى) المراد به يوم القيامة ، وهذا كقوله تعالى : (مالك يوم الدين) فنى الدنيا لبعض الناس ظل وملك ينسب إليهم حقيقة أو مجازا ؛ أما فى الآخرة فإنه لا يبقى لأحد ظل ولا ملك لا حقيقة ولا مجازا، قال جل وعلا (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؛ لله الواحد القهار) (غافر:١٦) .

هذا وقد بحث بعض أهل العلم وجوه الجمع بين هذا الحديث وبين الحديث الآخر (المرء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الخلائق...) إذا حملنا الظل فى هذا الحديث على ظل العرش .

وأجيب بجوابين : أحدهما : احتمال أن يكون فى يوم القيامة ظلال كثيرة بحسب الأعمال، لكن ظل العرش أعظمها وأشرفها يخص الله سبحانه به من يشاء من عباده الصالحين ، ومن جملتهم وفى مقدمتهم المتحابون بجلال الله سبحانه ، وعلى هذا فالقصر الذى يتضمنه الحديث قصر ادعائى كأن ماعداه ليس بظل .

وثانيهما : أنه ليس هناك إلا ظل العرش يستظل به المؤمنون، ولما كان ذلك الظل لا ينال إلا بالأعمال الصالحة التى يقدمها العباد وهى مختلفة جعل الله لكل عامل ظلا يخصه من ظل العرش بحسب عمله ، وسائر المؤمنين شركاء فى ظله بحسب أعمالهم ؛ والله أعلم .

ما يؤخذ من الحديث :

وفى الحديث فضل الحب فى الله ابتغاء وجهه، وفضل ما يترتب عليه من التزاور فى الله، والتجالس فيه، والتباذل من أجله .

وقد بين النبى ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتم الا بأمور ، من بينها حب

المؤمن لأخيه المؤمن، لا يحبه إلا لله وفي الله، دون أن يكون للدنيا وحظوظها مدخل في هذا الحب.

قال ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» رواه الشيخان.

— ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله (رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه) متفق عليه.

— وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا، وإذا الناس حوله، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه، فلما كان من الغد هجرت، فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فأخذني بحبوة ردائي فجبذني إليه فقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، وللمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ والمتباذلين فيّ» رواه مالك في الموطأ، ومن السنة إذا ما أحب المؤمن أخاه في الله أن يخبره بذلك، قال ﷺ «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه».

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا، حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». والأحاديث في الحب وآدابه وثمراته وفضائله كثيرة.

والله الموفق، وهو ذو الجلال والإكرام، والطول والإنعام.

١٨ — سَتْرُ المؤْمنِ على نَفْسِه

عن أبي هريرةَ رضى اللهُ عنه أنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ « كُلُّ أمتي مُعافَى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرةِ أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ، ثم يصبحُ وقد ستره اللهُ فيقولُ : يافُلانُ عملتُ البارحةَ كذا وكذا وقد بات يَسْتُرُه ربُّه وَيُصْبِحُ يكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عنه » متفق عليه (١) .

الشرح والبيان

المؤمن الصادق من شأنه المسارعة فى الطاعات ، والفرار من المعاصى والسيئات ، إذا وفقه ربه لحسنة فرح واستبشر ، وإذا وقع فى زلة حزن وابتأس ، ولكن الإنسان عرضة لأن يقع منه مايذم بسببه ، ويعاب عليه بارتكابه ، أو التقصير فيه — إذا وقع المؤمن فى شىء من ذلك فقد ندبه الشارع الحكيم إلى أن يستر على نفسه ، ولا يتكلم إلى غيره بما حصل منه ، وأن يستتر بستر الله عـــز وجل الذى أسبله عليه . وحسبنا قول الرسول ﷺ « لا يستر الله على عبد فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » (رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب من حديث أبى هريرة) .

كذلك ندب الشارع الحكيم من رآه من المسلمين أن يستر عليه ، ولايحدث بما كان منه ، وفى الحديث الذى رواه مسلم (ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة) وهذا إذا كان من أهل الصلاح والصيانة .

أما إذا كان من الأشرار الفجار فإنه لا يندب الستر عليه ، بل ينبغى أن يرفع أمره إلى من يملك كبح جماحه ، وكف أذاه .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب — باب ستر المؤمن عـــلى نفسه وأخرجه مسلم .

وذلك لأن العبد مادام فى عافية الستر ، لايجاهر بالمعصية ، ولا يستعلن بالخطيئة فهو بصدد أن يثوب إلى رشده ، ويتوب من ذنبه،ويستغفر مما بدر منه ، فيتوب الله عليه ، ويعفو عنه ، ويغفر له زَلَلَهُ وتقصيره ، فهو إذن ممن قال الله فيهم (والذين إذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين)(آل عمران: ١٣٤،١٣٥) .

وهـــذا بخلاف من يستعلن بالمعاصى ، ويجاهر بالخطايا ، ولا يبالى بما يقول فى الناس ، وما يقولون عنه ، وساءت فى الناس سيرته ، وقبحت علانيته وسريرته — فهذا قد ضل ضلالا بعيدا ، وخسر خسرانا مبينا ، وقل من هبط إلى هذا الدرك السحيق من السوء والفساد أن يعود إلى رشاد ، أو يقلع عن غى وفساد .

والحديث يعرض بالذم للمجاهرين ، ويشيد بالمدح والثناء للمستترين ، ويكشف فى خـــلال ذلك المؤمن ما ينبغى له أن يتعرف إليه ، ويقف عليه .

يقول النبى ﷺ (كل أمتى) .

أى كل فرد منها ، والمراد : أمة الإجابة ، وهم المؤمنون به ﷺ .

(معافى) اسم مفعول من العفو أو العافية أو المعافاة .

وهو إما يعنى أن الله يعفو عنه فى الآخرة ، ولا يعاقبه بذنبه ، بل يستر عليه ، ويغفر له .

وإما يعنى أن الله يرزقه السلامة من الناس ، فلا يقعون فى عرضه ولا يسيئون الظن به ، ولا يتعرضون له بسب ولا بلعن ولا بأذى ،

ويرزق الله الناس السلامة منه ، فلا يقتدى به أحد فيما يخفى من سوء فعاله ، ولا يستنون بسيرته فيما فسد من أحواله .

ولا مانع من إرادة هذه المعانى كلها فإن من يستر على نفسه ، ولا يصر على معصية ربه يحصل له عفو ربه ومغفرته ، وتحصل له السلامة من الناس ، ويسلم الناس كذلك منه ، وعلى هذا قامت الأدلة المتكاثرة من النقل والعقل ، وسنعرض لشىء من ذلك بحول الله وقوته ، ومنه وكرمه . (إلا المجاهرين) الذين جهروا بالمعاصى ، واستعلنوا بالخطايا فإنهم لا يعافون ، فالمجاهرة فى الحديث بمعنى الجهر ، والنكتة فى التعبير بجاهر إرادة المبالغة . وقد تكون المجاهرة على بابها والمراد الذين يجاهر بعضهم بعضا ، ويتحدث كل منهم بما كان منه من معصية إلى قرينة — إلا أن الاحتمال الأول أولى — ويؤيده بقية الحديث . على أنه إذا كان الجهر شرا وإيغالا فى الخطأ والرذيلة ، فإن المجاهرة أشد شرا وأعظم ضررا .

(وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا) .

تشير هذه العبارة إلى أن المجاهرين نوعان : نوع يقترف الموبقات ، ويرتكب المنكرات أمام الناس لا يخافهم ولا يبالى بهم ، ونوع آخر يكون فعله خفية فى الوقت الذى لا يطلع فيه أحد عليه عادة وهو الليل ، ثم يتحدث بما فعله إلى غيره من شياطين الأنس دون خوف أو حياء ، أو أمام الصالحين المستمسكين كأنه يغيظهم ويتحداهم ، والتقييد بالليل خرج مخرج الغالب لأن العادة أن المعاصى التى يتعاطاها أهل الريب والفساد من الفواحش وشرب الخمر ، ولعب الميسر ونحوها أكثر ما تكون بالليل .

وفى رواية أخرى فى الصحيح (وإن من المجانة) بدل (المجاهرة) وهى تفيد معنى زائدا عن رواية (وإن من المجاهرة) وهو أن المجاهر

بمعصيته ، المتحدث بها من جملة المجان . والماجن : هو الذى يستهتر فى أموره ، وهو الذى لا يبالى ما قال وما قيل له . والمجانة مذمومة شرعا وعرفا ، فيكون الذى جاهر بالمعصية قد ارتكب محذورين : إظهار المعصية ، وتلبسه بفعل المجان .

وأما (البارحة) فهى أقرب ليلة مضت من وقت القول ، يقولون ، لقيته البارحة ، وأصلها من برح إذا زال .

وأما قوله (كذا وكذا) فهو كناية عما يقوله المجاهر لقربه فى الشر ، ونظيره فى الفساد .

وأما جملة (وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه) فهى جملة حالية للتشنيع عليه ، وتقبيح صنيعه .

قال ابن بطال رحمه الله : فى الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله ، وبصالحى المؤمنين ، وفيه ضرب من العناد لهم .

وفى الستر بها السلامة من الاستخفاف — لأن المعاصى تذل أهلها — ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد ، ومن التعزير إن لم يوجب حدا ؛ وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين ، ورحمته سبقت غضبه ، فلذلك إذا ستره فى الدنيا لم يفضحه فى الآخرة ، والذى يجاهر يفوته جميع ذلك .

والله الهادى إلى سواء السبيل ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

١٩ — ماجاء فى النَّجْوَى

عن صفوانَ بنِ مُحْرِزٍ رضى اللهُ عنه أن رجلًا سأل ابنَ عُمَرَ : كيف سمعتَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ فى النَّجْوَى؟ قال « يدنو أحدُكم من ربِّه حتى يضعَ كَنَفَه عليه ، فيقولُ : عَمِلْتَ كذا وكذا ؟ ويقولُ : عَمِلتَ كذا وكذا ؟ فيقولُ : نعمْ فيُقَرِّرُه ، ثم يقولُ : إنى سَتَرْتُ عليك فى الدنيا ، فأنا أغفرُها لك اليومَ» متفق عليه(١) .

الشرح والبيـــان

المراد بالنجوى فى الحديث المناجاة التى تكون من الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة لعباده المؤمنين . .

قال الكرمانى : أطلق على ذلك النجوى لمقابلة مخاطبة الكفار على رءوس الأشهاد .

هذا والنجوى لغة : المسارة ، تقول : ناجيته إذا ساررته ، وأصله أن يخلو المرء بصاحبه فى نجوة من الأرض وهى ما ارتفع من الأرض :

وقيل : أصله من النجاة ، وهى أن تنجو بسرك من أن يطلع عليه .

والنجوى أصله المصدر ، وقد يوصف به الواحد والجماعة يقال : هو نجوى ، وهم نجوى — وفى التنزيل (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ... الآية) (الإسراء : ٤٧).

---

(١) أخرجه البخارى فى « الأدب » باب ستر المؤمن على نفسه وفى المظالم) باب قول الله تعالى — ألا لعنة الله على الظالمين — وفيه زيادة .
وفى (التوحيد) باب كلام الرب عزوجل يوم القيامة .
وأخرجه مسلم فى التوبة .

قوله ﷺ (يدنو أحدكم من ربه) المراد بالخطاب المؤمنون بدليل ماجاء فى رواية سعيد ابن أبى عروبة (يدنو المؤمن من ربه) والروايات يبين بعضها بعضا كما سبق أو نحناه مرارا ، والدنو هو القرب ، والمراد به قرب كرامة وعلو منزلة .

وقوله (حتى يضع كنفه عليه) الكنف — بفتح الكاف والنون — هو الجانب ، وهو الستر ، وهو المراد فى الحديث . والكنف بالمعنى الأول مجاز فى حق الله تعالى ، وهذا كما يقال : فلان فى كنف فلان أى فى حمايته وكلاءته ، وقد جاء فى رواية همام (حتى يضع عليه كنفه وستره) والمعنى أن الله جل وعلا يقرب عبده المؤمن منه ، ويستره من خلقه ، فلا يسمعون ما يقرره به ربه من ذنوبه ، ولا يطلعون على ماخفى من عيوبه ، فضلا منه سبحانه وكرما .

(فيقول : عملت كذا وكذا ؟ ويقول : عملت كذا وكذا فيقول : نعم فيقرره) .

فى رواية همام (أتعرف ذنب كذا وكذا) وفى رواية سعيد بن جبير فيقول له (اقرأ صحيفتك فيقرأ ، فيقرره بذنب ذنب ، ويقول : أتعرف ، أتعرف ؟ وفى رواية سعيد بن جبير لذلك (فيلتفت يمنة ويسرة ، فيقول : لابأس إنك فى سترى لايطلع عليك أحد غيرى) .

وحاصل هذه الروايات كلها أن الله يقرر العبد بذنوبه ذنبا بعد ذنب ، فإذا خشى العبد أن يفتضح أمره بين الناس طمأنه ربه أنه فى ستر الله وكنفه وأنه لا يطلع عليه أحد غيره سبحانه .

(ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) هذا هو صنيع الله بعبده المؤمن الذى يستر بستر الله فى الدنيا فلا يكشف ما كان منه من زلة أو معصية ، ويستر الله عليه فى الدنيا ، فإن الله يغفر له

يوم القيامة ، كما قال ﷺ فى الحديث المشهور « كل أمتى معافى إلا المجاهرين .... » ، ويالها من فرحة أن يستقبل العبد من ربه البشرى بالستر والمغفرة .

وفى رواية (وأما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) .

والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، كما أنه جمع شهيد كشريف وأشراف .

فانظر يارعاك الله كم من الفرق بين من يدنيه ربه ويستره ، ويناجيه ويبشره بالمغفرة ، وبين من يعرض عنه ربه فلا يكلمه ، ولا ينظر إليه ، وينادى عليه الأشهاد على رءوس الخلائق باللعنة والطرد من رحمة الله لتوغله فى الظلم ، وانغماسه فى الشر والإثم .

هذا والمراد بالذنوب فى الحديث إنما هى التى تكون بين العبد وربه دون مظالم العباد ، لأنه لابد من المقاصة فيها ، يدل على ذلك ما أخرجه البخارى فى كتاب المظالم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (إذا خلص المؤمنين من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة) .

قال المهلب: فى الحديث تفضل الله على عباده بستره لذنوبهم يوم القيامة ، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم — بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان — لأنه لم يستثن فى هذا الحديث ممن يضع عليه كنفه وستره أحدا إلا الكفار والمنافقين فإنهم الذين ينادى عليهم على رؤس الأشهاد باللعنة . اهـ

هذا وقد عقب الإمام الحافظ ابن حجر على حديث أبى سعيد الخدرى عند إيراده له ههنا فقال: يدل هذا الحديث على أن المراد بالذنوب فى حديث

ابن عمر مايكون بين المرء وربه سبحانه دون مظالم العباد ، فمقتضى الحديث أنها تحتاج إلى المقاصصة ، ودل حديث الشفاعة على أن بعض المؤمنين من العصاة يعذب بالنار ، ثم يخرج منها بالشفاعة .

فدل مجموع هذه الأحاديث — حديث ابن عمر وحديث أبي سعيد وحديث الشفاعة — على أن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين أحدهما: من تكون معصيته بينه وبين ربه، فدل حديث ابن عمر على أن هذا القسم على قسمين: قسم تكون معصيته مستورة في الدنيا: فهذا الذي يستره الله عليه في القيامة ، وقسم تكون معصيته مجاهرة فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك .

والقسم الثاني : من تكون معصيته بينه وبين العباد ، فهم على قسمين أيضا . قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم ، فهؤلاء يقعون في النار ، ثم يخرجون بالشفاعة وقسم تتساوى سيئاتهم وحسناتهم ، فهؤلاء لايدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاص كما دل عليه حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

موقع الطريقة الحامية الخلوتية